

## نهى بيومي

يتميز أرشيف مراسلات العائلات اللبنانية بالطابع المكتوم، مع أن حيوات العائلات التي تودعها في رسائلها تمتلئ بالتاريخ الذي يحتاج إلى إعادة تركيب في سياقه واستنباط نبرته، حتى لا تسترده الأبدية الميتة وتحيده في منطقة عازلة، بل ندعه يتخلى عن عطالته، فنستشعر الكينونات عن قرب رغم البعد الزماني والمكاني، ونستردها في حيويتها. نعيش في حالة إرباك وفوضى في عملية تقصي معاني حيوات النساء، ربما عاد هذا الإرباك إلى أن العالم الذي نعيش فيه لم يعد يمنح المعنى تلقائياً، الأمر الذي يدعو إلى بذل الجهد لتوضيحه وفهمه مستخدمين استراتيجيات الفكر واللغة والأحاسيس والخيال، عبر أنواع مختلفة من الكتابة لا سيما الرسائل. إن البحث الثقافي /الاجتماعي مهم كي نستنبط المصادر المختبئة ونستطققها، فالرسائل إلى كونها "كتابة الذات" وسيرة ذاتية غير مقصودة، فإنها تؤرخ أحداثاً وترسم صوراً عن أدوار النساء عبر الأجيال وعلاقة الرجال بالنساء وتقدم تاريخ الذهنيات. يحفر أرشيف الرسائل دربا مميذا لتجديد التفكير في تاريخ التمثلات، هذا الرهان شجعنا على الخوض في دراسة رسائل أم لبنانية موجهة إلى ابنها المهاجر.<sup>1</sup>

هل هذه الرسائل عادية؟ لا يوجد العادي في الكتابة إلا عبر النظرة إليها. إلينا يعود أن نتخيل أجواء الرسائل، وأن نموضع بلاغتها ونلتقط انحرافها؛ وهي مجتمعة تشكل شبكة فيما بينها، يضاف إليها المعرفة المتحققة من مصادر أخرى خارجة عنها، وعبر هوية دارسها.<sup>2</sup> الرسائل قبل أن تكن طريقة في الكتابة، هي طريقة في العيش تقود العلاقة وتحتفظ بآثارها، مفتوحة على التغيرات في الزمن، تكشف عن "أشخاص" وليس عن شخصيات. تعيد الرسائل بناء الوقت، وتنشأ وثائق وظيفتها إظهار وقائع تاريخية، وإعادة خلق مرحلة ما وإحياء مشاعر خفتت وإظهار المعاش وتجاريه.<sup>3</sup> من المؤكد أن قراءة سيرة ذاتية أسهل من إعادة بناء مسار حياة في مرآة المراسلة المتشظية. فرسائل الأم حين يكون ابنها في بلاد بعيدة، فإنها تتحو نحو إعطاء أخبار العائلة، وطمأنة المغترب إلى أن الأمور تسير على ما يرام، كي يتقدم في حياته ويحتمل هجرته. تعكس الرسائل إلى المهاجرين الحاجة الحميمة للحفاظ على الرباط العائلي وإبقائه حياً، والمحافظة على الصلات مع البلد عبر العلاقة الوطيدة بالبيت الأسري، فالوطن هو البيت أولاً. تتمتع الرسائل بقدرة على الفعل بالكلمات، أي في إنتاج قيم قولية فاعلة، وتفتح حوار الذات الباحثة عن تأكيد وجودها، ليشاركها المرسل إليه أفراحها وأحزانها، هو الذي يحتاج بدوره إلى تأكيد وجوده من خلال هذه العلاقة. إنها صيغة استراتيجية حاسمة لبيان الاتحاد في الوجهة بين المرسل والمرسل إليه الذي يجمع على نحو خفي بينهما، بين الغياب والحضور، وذلك من خلال السعي إلى الكشف عن التواشج الخفي بينهما في تدبير الشوق والحفاظ على الروابط.

<sup>1</sup> الرسائل تعود إلى الفترة الواقعة ما بين ١٩٨٥ و ٢٠٠٢.

<sup>2</sup> Philippe Lejeune, Tri, in La Faute à Rousseau, Correspondances, octobre 2003-N 34 p.51.

<sup>3</sup> Georges May, L'autobiographie, pp.133-134, puf, Paris 1997.

رسائل عادية، نعم. غير أنها تمتلك السلطة الاجتماعية للكتابة التي تتيح فرصة إجراء تصوير شعاعي لدور المرأة/ الأم وعلاقتها بابنها، إذ تقدم رسائلها ذاتية ملفنة على أكثر من صعيد: حبها المحموم لأولادها، تشكيلها مرجعية عائلية محورية جاذبة لعودة الأولاد، وعيها الحاد بضرورة دعم أولادها معنويا في مساعهم عبر اتخاذها مواقف ايجابية منهم. لذلك سأحاول استكشاف الطريقة التي انبنت بها الذاتية الامومية في الرسائل للتعرف إلى مصادر أفكارها: الممارسة التجريبية الشخصية، فهمها للمعيش اليومي ولمعنى وجودها في العالم، انه المصدر الذي لا يمكن التوصل منه، أي براديجم الوعي، البنية الأولى لفهم المعيش بوصفه سياقاً دلالياً يحيل إلى العالم العلائقي. حسب هيدغر العالم علائقي، جملة من العلاقات والإحالات بين الموجودات التي تجد نموذجها في اللغة اليومية. ذلك يحيلنا إلى وجوب قراءة هذه الرسائل كفضاء بناء علاقة أمومية، وكمكان للتفاعل بين الأم وابنها<sup>٤</sup>.

إن قراءة الرسائل مغامرة شبه روائية، إذ نتبع حيوات مجهولة عبر أصدائها السير ذاتية؛ كما لو أننا أمام مرآة نتعرف فيها إلى أنفسنا أيضاً كمجتمع وثقافة ونساء<sup>٥</sup>، فنعيد بناء مقولاتنا وتصوراتنا ونضعها موضع السؤال، وربما وفرت لنا أدوات التحرر من خطابات نمطية حول النساء<sup>٦</sup>. من البديهي اعتبار الرسائل الخاصة الحميمة العائلية ذاتية، لكن هل تتجسد الذاتية في هذه الرسائل، خاصة حين يكون المرسل أم شرقية ولدت في الربع الأول من القرن العشرين؟ إننا نتساءل عن مدى إمكانية النساء التعبير عن أنفسهن وفق تجارب الذات وصورهن عنها. ومع أنني لا أقف عند عتبة بعض المقولات من أن المرأة مقهورة ومغبونة، فإنني أيضاً لا استسهل فكرة أن النساء بمقدورهن التعبير عن أنفسهن كيفما شئن أو رغبن وأن الأمر يتعلق بهن وبجهدهن وحده. بين هذين الموقفين المتصلب والمتراخي أقف باحثة في مجال آخر خارج عنهما، علني أتلمس امكانيات التعبير الذاتي الأنثوي ومجالاته وحدوده ضمن النسق الاجتماعي/الثقافي المسيطر، وضمن التمثلات الثقافية للأنثوي وكيفية تلقيها من قبل الأنثى وإعادة إنتاجها بشتى تلويناتها لدى شريحة من النساء لم تحظى بمستوى تعليمي متقدم، خاصة وأن الأنا أسيرة "التماهيات المتخيلة" وفق لاكان الذي يؤكد "أن الأنا التي نتعامل بها هي مجموع هذه التماهيات المتخيلة. ولكن هذه الأنا بحكم هذا الاستنتاج تبقى دائماً ناقصة مقارنة بمثال الأنا. هنالك دائماً مسافة تباعد بين الاثنين. يسعى الإنسان دائماً إلى تقليصها، دون أن يتمكن من إنهاؤها. لذلك يقول لاكان بأن قدر الإنسان أن يبقى متأرجحاً في علاقة مزدوجة"<sup>٧</sup>. بناء على هذه الأطروحة نتساءل أولاً، ما هي فرص ذاتية الأم التي تنتمي إلى النصف الأول من القرن العشرين وذات مستوى تعليمي محدود، في الابتعاد عن مثالات الأنا حول المرأة/ الأم؟

<sup>٤</sup> لا يمكننا قراءة الرسائل دون التساؤل عن ماهية الروابط العائلية في لبنان حيث لا تتوقف هجرة الأبناء عنه. فالروابط مهددة بالحدود وبالزمن، إذ يعيش الأبناء في أمكنة وثقافات أخرى، فهل تصبح الروابط العائلية رمزية؟

<sup>٥</sup> اشتهرت النساء تاريخياً في كتابة الرسائل في الغرب. idem, p.32.

<sup>٦</sup> إن احتفاظ الابن برسائل أمه فعل يحمل دلالة على وجوده وعلامة على هذا الوجود بالنسبة إلى كائن آخر محوري في حياته هو الأم. لم يكتب رسائل إلى أمه، لكنه أجاب لاحقاً فنياً على رسائلها عبر لوحات الكولاج التي صنعها من رسائلها. أنظر:

<sup>٧</sup> Francoise Simonet-Tenant, Enquête, in La Faute à Rousseau, op.cit, p. 31.

<sup>٧</sup> عدنان حب الله، بزوغ الأنا وعلوم الأعصاب، في أعمال المؤتمر الأول للمحللين النفسيين العرب، فكرة النفس عند العرب وموقعها في التحليل النفسي، الفارابي، بيروت ٢٠٠٥، ص.٨٦.

إذا كان التحليل النفسي محققاً في تأكيده من أنه " بمجرد دخول الذات عالم التعبير، تصبح اللغة المحتوي والمحتوى لها (...) ) وأي قول يصدر عن الذات يؤدي حكماً إلى انقسامها ما بين وعي حاضر وما بين معرفة لا واعية تستخرج من الأولى.<sup>٨</sup> فإننا نتساءل ثانياً، إلى أي حد تفصح الرسائل الحميمة عن ذاتية المرأة/الأم الواعية واللاواعية؟ وهل الحميمية كفيلة بإظهار صور ذاتية، أكثر تحرراً من المثالات تجسد خبرة المرأة/الأم/الزوجة؟ إذ نعتقد أن جيل الأمهات اللواتي انتمين إلى المنتصف الأول من القرن العشرين أكثر انخراطاً في شبكة الخارج التي تستدعي المحاكاة<sup>٩</sup> من انخراطهن في العالم الداخلي<sup>١٠</sup> الحميم المفتوح على الخبرات الحية<sup>١١</sup>. وبالتالي تحتكم المرأة/الأم في تصور وممارسة أنوثتها وأمومتها إلى قوة الخارج أكثر من قوة الداخل، أي التجربة. هكذا يبقى الداخل في حالة كبت أو "تقية"<sup>١٢</sup>، "وقد انعكس محو الداخل، على الصعيد الاجتماعي، في ممارسات شطرت الإنسان"<sup>١٣</sup> بين مضمّر/معلن وداخل/خارج. إن هيمنة الخارج وطمس الداخل حول الأمومة إلى "أسطورة" يصعب نقدها، ويتم التعامل معها كما لو أنها فعل تكراري، منعزل عن الزمان والمكان وحيثياتهما. ذلك دفع أخصائية في التحليل النفسي كلاريسا بنكولا للحديث عن حياة المرأة "كمخلوق متكرر" يعتمد على محاكاة النموذج السائد بمعزل عن الرغبة والتجربة<sup>١٤</sup>. لذلك تعلن البحث عن المرأة الغريزية القابعة في أعماقها وتسميها "المرأة الوحشية"<sup>١٥</sup>، قاصدة استكشاف " تلك العلاقة-مع الأنوثة الوحشية- التي ربما أهملناها حتى بهتت أو دفناها تحت ركام الأعمال المنزلية أو توارت خلف محاذير الثقافة المحيطة بنا."<sup>١٦</sup> وتقصد بالوحشية عيش الحياة الطبيعية التي يتمتع فيها الكائن بوحدته الداخلية وحدوده القوية<sup>١٧</sup>. والحال إننا نتساءل ثالثاً، إلى أي حد امتلكت أليس حدودها القوية وخرجت عن المحاكاة؟

يقول Benveniste إن الإنسان يتكون في وباللغة كذات، ذلك عن طريق استملاكه بعض الأشكال التي تضعها اللغة تحت تصرفه وأولها استخدام "الأنا" حيث أن استخدامها هو في أساس الوعي بالذات.<sup>١٨</sup> نتساءل رابعاً، هل الأم حرة اللغة والوعي في خطابها؟ وهل استخدام اللغة المحكية يحرر ذاتها ويطلقها؟ إذ يثير المحلل النفسي مصطفى صفوان مبدأ إنسانية اللغة ويدعو إلى اعتماد اللغة الدارجة<sup>١٩</sup> تحقيقاً للتنمية الإنسانية. لذلك أتساءل

<sup>٨</sup> المصدر المذكور، ص. ٨٥.

<sup>٩</sup> نقصد قوة العادات، التقاليد، الدين، الفكر المحافظ، تجارب اجتماعية محصورة في أطر ضيقة حيث الفصل حاد بين الخاص والعام.

<sup>١٠</sup> أي المبني على التجارب الفردية المستجدة في الزمان والمكان.

<sup>١١</sup> أدونيس، هناك ذاتية في الثقافة الإسلامية السلفية؟ في: أعمال المؤتمر الأول للمحللين النفسيين العرب، ص. ٢٩.

<sup>١٢</sup> المصدر السابق، ص. ٣٠.

<sup>١٣</sup> المصدر المذكور، ص. ٣١.

<sup>١٤</sup> كلاريسا بنكولا، نساء يركضن مع الذئاب، الاتصال بقوى المرأة الوحشية، ترجمة مصطفى محمود محمد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٢، ص. ١٢. تقول: " هكذا مثل الكثير من النساء قبلي ومن بعدي عشت حياتي كمخلوق متكرر. وكما كنت أرى أهلي وعشيرتي، أخذت أخطو في خيلاء وبراعة بالكعب العالي وأتألق في ملابس وبقيعتي في طريقي إلى الكنيسة. بيد أن ذيل ثوبي الخرافي كان يتجرر على الأرض خلفي بعوقتي، وأناي تلتوي بشدة تحت حافة القبعة التي تتدلى على عيني وتحجب عنها الرؤية البعيدة".

<sup>١٥</sup> المصدر السابق، ص. ١٣.

<sup>١٦</sup> المصدر المذكور، ص. ١٤.

<sup>١٧</sup> المصدر المذكور، ص. ١٥.

<sup>١٨</sup> أنظر: Subjectivité, in Dictionnaire d'analyse du discours, Seuil, Paris 2002, pp.552-553.

<sup>١٩</sup> مصطفى صفوان، الكتابة المقدسة والعبودية المختارة، في أعمال المؤتمر الأول للمحللين النفسيين العرب، ص. ١٥٢. يتحدث عن ضرورة " الأخذ بعين الاعتبار مبدأ إنسانية اللغة الذي لعب دوراً أساسياً في تطوير الشعوب في مسار تاريخها، فبعد أن كانت اللغة اللاتينية هي لغة الخاصة المميزة وتتنحصر العلوم بها، تحولت الدول الغربية إلى اعتناق لغة الأم، أي الدارجة، وأدخلتها في برامج التعليم في المدارس، مما فتح المجال أمام عامة الشعب وكتاباتهم محصورة في حلقة نخبة المثقفين، نظراً لأن العامة ليس لها مدخل على هذه اللغة المتداولة".

خامسا، ما إذا كانت رسائل الأم التي كتبت باللغة الدارجة الممهورة ببعض التعبيرات الفصحى، مكنتها من الإفصاح عن ذاتيتها، وفتحت حظوظها في التعبير.

إن استدعائي لهذه المقولات المتعلقة بميدان التحليل الثقافي والتحليل النفسي استعين بها بهدف تعزيز إمكانية استكشاف تجليات الذاتية وحدودها عند امرأة/أم عبر رسائلها. ولا نغفل في هذا الإطار ما يدور بين الذات، إذ إن علاقة الأم بابنها متعددة الأبعاد (هو/هي/العائلة/المجتمع/الدين) تجدل مصير الذات وتشكل بعدها الخيالي. وقبل ولوجنا سبل دواخل الأم عبر رسائلها، سوف ندخل إلى عالمها عبر ابنها فنقدم تعريفا عنها من خلال مقابلات أجريناها معه.

### من هي أليس؟

أليس دورة، شخصية مكافحة، جريئة، صلبة، عاطفية، رومانسية وقوية تعرف ماذا تريد. هذه صورتها التي قدمها ابنها بإعجاب، وبنظرة راضية تطلع إليها باحثا عن ذرائع تؤكد ما ذهب إليه في توصيف شخصيتها المميزة. ولدت عام ١٩٢٥ في الميناء في طرابلس، في كنف عائلة مكونة من ثلاثة أبناء وبننتين. توفى والدها باكرا ولم تتجاوز الخمسة عشر سنة. آنذاك كان وضع العائلة المادي حرجا لا يسمح بتعليم جميع الأبناء. تركت أليس المدرسة، وزادت عمرها إلى ثمان عشرة سنة كي تتمكن من العمل في دائرة البريد والهاتف في طرابلس، وبقيت في هذه الوظيفة لغاية تقاعدها. أخبرت ابنها قصصا عن معاناتها وكيفية مواجهتها الظروف الصعبة بقوة التحدي<sup>٢٠</sup>، مع ذلك تمكنت من مساعدة أخيها الصغير في تعليمه. حين أصبحت في أوائل الثلاثينات قررت الزواج، صدف أن اصطفت في الكورة حيث يعيش زوج المستقبل، تعرفت إليه، ولم يكن زواجها تقليديا عن طريق العائلة، استلطفته ووجدته جميلا، وكانا متقاربين في السن. ساد آنذاك في الضيعة تقليد بقاء الأبناء فيها بعد الزواج، لكن أليس رفضت ذلك، إذ أنجبت أربع أولاد ذكور وأرادت الانتقال إلى المدينة، كي يتلقوا التعليم المناسب.<sup>٢١</sup> هكذا حدد الابن صورة أمه في إطار أسري متماسك، ووصف حياتها قبل الزواج بأنها خارجة عن التقاليد، على مستوى عملها وتحملها بعض أعباء عائلتها الاقتصادية، وسياقتها للسيارة وممارساتها لبعض الهوايات والفنون<sup>٢٢</sup>، وأيضا في اختيارها للزوج واستمرارها بالعمل واختيارها سبل تعليم أولادها.

إننا نتناول سيرة امرأة بعد التقاعد من العمل وهجرة أولادها الأربعة. وجدنا امرأة من خلال مقابلة الابن ووجدنا أما من خلال قراءة رسائلها. يبرز دورها الأمومي من خلال رسائلها بقوة، ونجد أن حدود الرسائل ثلاثة: الحدود الأولى، تلك التي تفصل البلدان واللغات والثقافات حيث يعيش أبنائها. الحدود الثانية، نوع الكتابة، التراسل أو الفكر المترحل، الذي يهدف إلى تعديل مسار حوار مع الابن يصعب إقامته بسبب الحدود الفاصلة، وإلى البحث عن الانسجام وإزالة التفاوت العاطفي، كما يهدف إلى تعليق الزمن والمسافات. ذلك مع المحافظة على المسافة الفاصلة التي تحفظ الحرية الداخلية في قول ما يرد قوله. ثالثا، تقدم الرسائل شكلا مختلفا من أشكال التعبير

<sup>٢٠</sup> كانت على سبيل المثال، تسير يوميا وهي صغيرة في السن، لمدة ساعة كي تصل إلى عملها.

<sup>٢١</sup> يقول ابنها كميل زكريا: "إنها جد مصممة فهي اقتعت أبي أن يترك الضيعة للعيش في طرابلس. ليس أمرا هينا إقناعه بذلك وهو يملك بيته في الضيعة، بيت جميل، إضافة إلى وجوده بين أهله. ثم جرته إلى طرابلس. هذا ليس أمرا هينا."

<sup>٢٢</sup> التمثيل المسرحي والرسم.

عن الذات. إنها الكتابة الحميمة حيث توضع الذات على المسرح، وتظهر المواقف والاستراتيجيات السردية حيال التمثيلات الثقافية للأمم. إنه المرور من حالة إلى أخرى بين أنا/الأم وأنا/الفرد.

على أنها في جميع الحالات أم واثقة من قيمها وجدارتها، لم تستسلم لغربة الأولاد بل شرعت في الكتابة إليهم، ومضت تعزز انتمائها إليهم وانتائمهم إليها. إنها أم روحية وديوية.<sup>٢٣</sup>

### أليس بعد الزواج:

للأم صورة واضحة عند الابن تؤكد على قوة شخصيتها ودورها في تمكين العلاقات الأسرية، منها اكتسب حب الإخوة والالتزام بهم، أم ايجابية في نظرتها إلى أولادها، تعطي أفضل صورة عن نفسها وعن زوجها وعن أولادها. وللأم صورة ملتبسة، إذ تبدو له قوية ومتحفظة في آن. لماذا؟

فيما يخص الصورة الأولى، يعيد الابن تماسك الأسرة إلى الأم<sup>٢٤</sup> لكن ظروف التعلم في الحرب والظروف الاقتصادية دفعنا الأبناء إلى الهجرة. يصف مشاعر الأسرة التي انكسرت حين غادر أول ابن إلى أميركا<sup>٢٥</sup> حيث "صارت الهجرة هينة". هناك امتحن موروثه الأمومي في الالتزام بالإخوة. يتوقف عند ايجابية الأم، رادا ذلك إلى خاصة العطاء عندها ومطالبتها بالقليل<sup>٢٦</sup>، ثم يؤكد حضورها القوي وتدبيرها شؤون الأسرة حين كان طفلا<sup>٢٧</sup> متنبها إلى حنانها، ملاحظا قوتها "لكن ليس بمعنى التسلط".

أما صورتها الثانية الملتبسة فإنها تتصف بالتحفظ والمبالغة في إسباغ صورة الكمال على الذات وعلى أفراد الأسرة<sup>٢٨</sup>. تصر مثلا، على إعطاء أفضل صورة عن زوجها، وتظهر تفهما لرغباته مع أن ابنها يعاكس وجهة نظرها ويرى أنها لم تحمله مسؤولياته.<sup>٢٩</sup> لقد ترك الابن بيت الأسرة باكرا، فلم يتعرف إلى تفاصيل حياتها، فأعاد كتمانها إلى شخصيتها القوية، متسائلا "لماذا تزوجت متأخرة؟ لماذا اختارت البابا؟ لأنني أراها أكثر تحديا منه، وأقوى وأذكى".

ربما نرى في هذه الصورة المعقدة نموذجا لتربية الإناث في الربع الأول من القرن العشرين، حيث تُعرف النساء عبر صلتن بالذكور، كائن اجتماعي مرتبط، مطلوب منه العطاء والانحاء ذاتيا.<sup>٣٠</sup> أما وجهة نظر النسويات - اللواتي يسترشدن بالتحليل النفسي- حول مكانة الآخرين عند النساء، فإنهن يبين أن الهوية الذكورية تتبني عبر الانفصال والتخلي<sup>٣١</sup>، بينما تتكون الهوية الأنثوية عبر التماهي والاتصال. هكذا تعرف الذات الأنثوية عن نفسها عن طريق علاقاتها بجماعتها وتعلقها بهم. هذين الوجهين، الوجه التربوي والوجه النفسي، يفسران إلى حد ما، مبالغة الأم في تخصيص مكانة كبيرة لأعضاء أسرتها في حياتها. غير أن دراسة الرسائل لا تكفي

<sup>٢٣</sup> كلاريسا بنكولا، المصدر المذكور، ص. ٢١٤.

<sup>٢٤</sup> يقول ابنها كميل زخريا: "كانت الوحدة العائلية قوية جدا في لبنان، ونحن كما عشنا، ورغم الحرب كنا ملتقين على بعضنا البعض. لم أفكر بتاتا أن أبتعد عن هذه الوحدة العائلية، وان انتقل إلى مكان آخر".

<sup>٢٥</sup> يقول الابن: "عندما ذهب شعرنا أننا ناقصين. حين كنا نتصل به هاتقيا عبر موظف السنترال الكل بيكي. هذا كسر كل شيء. من بعدها صار أسهل على الثاني أن يترك".

<sup>٢٦</sup> يقول: "ولا مرة أشعرتنا أنها بحاجة إلى أي شيء أبدا!"

<sup>٢٧</sup> يقول: "أتذكرها دائما عائدة مساء من الشغل ومنهمكة في تحضير الأكل، وأثناءها كانت تستلم تدريس احدا، وخالتي تتولى الآخر".

<sup>٢٨</sup> يقول: "ليس معقولا أن يكون كل شيء في غاية الكمال، إنها تتصرف بهذه الطريقة مع الجميع. تقوم بالواجبات وتساعد الآخرين على حل مشاكلهم، حاملة أسرار الناس، لكنها كتومة".

<sup>٢٩</sup> يقول: "أكيد أنها ضحت وأنها تحملت عبأ أربع شباب وزوجها لا يعمل بل يعيش مرتاحا. ذهب في السبعينات إلى أميركا، اللذين ذهبوا معه امتلكوا فيما بعد محطات. لم تسألها لماذا عدت ولم تحاسبه. ثم سافر لاحقا إلى البحرين وعاد. كان بإمكانها الضغط عليه ورفض تصرفه. بدل ذلك تركته يفعل ما يشاء".

<sup>٣٠</sup> Jacques Lecarme, Elianne Lecarme-Tabone, L'autobiographie, Armand Collin, Paris 1999, p.119.

<sup>٣١</sup> على الولد الانفصال عن أول موضوع حب له، وهو الأم، كي يصبح رجلا.

بهذين الوجهين وحديهما، إذ يوجد بعد آخر لهذه الشخصية نسميه الفكر العاطفي الذي يفتح شخصية الأم على بعدها النفسي والثقافي، ويستند إلى الإحساس بالرضى وما يصاحبه من سكون للنفس وبهجة، وإحساس الذات بعظمة دورها الذي ينتج داخلها رجة لمشاعرها في تمثلها لدورها اليومي.

## ١- الرسائل والفكر العاطفي

### ١٠١- إشكالية الرابط: هي/هو/هم.

يبنى الابن حياته الجديدة خارج البلاد، والأم في مكانها الذي كان عامرا بالأولاد ثم رحلوا تباعا. مع غياب التكافؤ على المستوى العاطفي بين الأم وأولادها، فإن رسائلها تحمل كل الوضعية العاطفية الافتراضية. ليس بإمكاننا التغاضي عن الروابط التي تخلفها المراسلة وتحافظ عليها: الرابط العاطفي والعائلي والاجتماعي بالمعنى الواسع. يستوقفنا هذا النسيج الذي تحيكه الرسائل الذي يحتوي صورة الابن وصور الأولاد الآخرين، في الوقت نفسه، فتقدم إحياءات عن المرسل نفسه وليس المرسل إليه فقط. لا يوجد نوع أدبي أو فني يمكنه الجمع بين الداخل وتقاسم هذا الداخل إلا الشعر.<sup>٣٢</sup>

تتطلب دراسة الروابط العاطفية تحديد إطار رسائل الأم الذي ينظم تجربتها ويمكننا من تبين شخصيتها والعوامل التي تتحكم في عيشها. لا نعتقد أن الفاعل الاجتماعي يمتلك كل السلطة في بناء أطر تجاربه، بل إن هذه الأطر هي حصيلة موروث اجتماعي يفرض علينا وإن جزئيا، طريقة في تأويل تجاربنا.<sup>٣٣</sup> إن إطار الرسائل الذي تقدم الأحداث فيه يشير إلى أهمية المعطيات التي تقدمها الأم. انه الإطار المشهدي الذي يساعد في التعريف عن الفضاء المستقر في الداخل ومنه يتخذ القول معنى. تقدم الأم في رسائلها إطارا نفسيا وزمانيا ومكانيا يشير إلى تعدد الوقائع وتشابك مستوياتها، كما يشير إلى كونه ثمرة تجاربها الحياتية اليومية، ويهدف إلى صياغة مجال حوارى تشاركي بينها وبين الابن، هو الذي يعيش في عالم<sup>٣٤</sup> مختلف عن عالم "كفرحزير".

يمتاز الإطار النفسي بصياغته لدور الأم كمصدر المعلومات، العارف بالأخبار والمطلع عليها<sup>٣٥</sup>. ومصدر الحب والاطمئنان، الحزن الذي ينتظر قدوم الأولاد لرعايتهم، ومصدر الربط والتواصل بينها وبين الأبناء<sup>٣٦</sup>، وبين الأبناء مع بعضهم بعضا عبرها، ذلك من أجل توطيد الروابط الأخوية: "أرجو أن تتكلموا دائما مع بعض كما لو أنكم في بلد واحد". وهي مصدر الثبات على الحلم باللقاء "حلم من الأحلام" يا ريت منصير ببلد واحد". أما الإطار الزمني لكتابة الرسائل فإنها تحدده بعناية ودقة، الساعة والطقس والمكان، إضافة إلى تحديدها مكان الكتابة، الطاولة التي تضع عليها صورة ابنها أمامها كي تستلهم حضوره وحواره، وتستدعي مشاركته لها، في هذا الجو الرومانسي، وتحديدها المشهد الطبيعي، أشكال الطبيعة المختلفة في الفصول. إنها عناصر ترسم الجو الطبيعي والنفسي، هي طوابع باسمة تنبأ بالفيض العاطفي، وتحمل الكلمات أكثر مما بوسعها حمله، وتفسح حيزا

<sup>٣٢</sup> Geneviève Haroche-Bouzinac, in La Faute à Rousseau, op.cit, p.56.

<sup>٣٣</sup> E.Goffman, in: Dictionnaire D'analyse du discours, op.cit, p.87

<sup>٣٤</sup> انه عاش وتنقل بين كندا وأميركا وتركيا واليونان والبحرين.

<sup>٣٥</sup> نقصد أخبار العائلة والضيعة والأقارب والأصدقاء.

<sup>٣٦</sup> إنها تعلمهم بنمط عيشها وحياتها هي والأب.

بيننا للغائب/الحاضر وتجعل الحوار قائما بينهما. هذا هو غذاءها الروحي: المطر، الغيم، البلبل الذي يصبحها كل يوم؛ ودافعها للحياة التفكير بابنها وصورته أمامها حيث تكتب.

لم تستسلم هذه الأم المتقاعدة لظروفها الأسرية، بل تبادر إلى الانتقال إلى مرحلة أخرى، إلى تطور جديد، هي المرأة الدينامية التي لا تتوقف عن الحركة، كما وصفتها كبتها. بدل أن تجعل الزمن الماضي محور حياتها وصورة عميقة الترسخ في ذاتها، فإنها استخدمت الحاضر كعلامة مميزة؛ الماضي مهما كان مزيئا بالإنجازات لا تقف عنده. هكذا لا تتوجه رسائلها إلى ابنها من منطلق الماضي بل من منطلق الحاضر الذي لا يحيل دون تطورها من جديد. تمضي في الكتابة إلى أولادها، والعناية بتحسين البيت في الضيعة وفي المدينة، استعدادا لاستقبالهم. إن تفاؤلها بالحياة يجعل إقبالها عليها واضحا، كأنها خفت قبضتها على نموذج حياتها الماضية كي تنمو أشياء جديدة في حياتها. إنها تضع نفسها في المناسبات المغذية والمضيئة: الكتابة إلى الأولاد في انتظار استقبالهم.<sup>٣٧</sup>

### ١٠٢- استراتيجية الكتابة.<sup>٣٨</sup>

إن استراتيجيات الكتابة تتجه وتخدم تعزيز فرص اللقاء والتمتع بحلاوته التي لا يضاهيها شيء آخر في الحياة. لذلك فإنها تنقصد:

١- وصف اللقاء الأخير بابنها أو بأولادها الآخرين، والتوقف عند جمال اللقاء الذي لا يمكن تجاوزه.

٢- الزمن لا قيمة له إلا حين يحين موعد هذا اللقاء وذاك القرب.

٣- تمتين الروابط الأسرية والعائلية، وبالمكان/الأم خصوصا.

إن حياتها موقوفة على أوضاع أولادها وعلى حسن التواصل بينهم جميعا، وبينهم وبينها. حياة موقوفة على الشوق وموقعة باللقاء السنوي. لذلك تتوقف مليا عند وصف اللقاء وإعطاء أخبار العائلة والأصدقاء وأهل الضيعة. أما المكان الحميم، فإنها تصف هيئته الجديدة بعد الإصلاحات التي أجريت عليه من جراء الحرب، سواء بيت الضيعة (كفر حزير) أم بيت الميناء (طرابلس). وصف يركز على الجمال والراحة والمتعة والأنس والحميمية من جهة، ومن جهة أخرى، فإن كل ذلك لما أمكن حدوثه لولا مساعدة الأبناء المادية.

إن استراتيجيات الكتابة<sup>٣٩</sup> تخدم مسؤوليتها كأمام مناط بها تمتين الروابط الأسرية والعائلية وبالمكان/الأم، ومدار هذه المسؤولية أليس المرأة القوية التي تتحدى عوائق ممارسة أمومتها وتتجاوزها، وليس ثمة فعل هروب بل حضور يتحدى الغياب القسري.

### ١٠٣- العواطف: تجربة عاطفية واعية ومجسدة في كلمات.

#### الأم حاضنة العاطفة ومثيرها:

<sup>٣٧</sup> هذا التحول في الشخصية تحدثت عنه كلاريسا بنكولا في دراستها الشيقة تحول النساء من "البقاء" إلى "الازدهار". المصدر المذكور، ص. ٢٤٢.  
<sup>٣٨</sup> نتساءل إن كان هناك رابطا بين مهنة الأم، عاملة في مركز البريد والهاتف وبين سخالها في كتابة الرسائل. فمن يتحدث عن رسائل يتحدث أيضا عن البريد وسيلة التواصل. لكن في الحرب ابتكر اللبنانيون وسائل أخرى، وسائل بشرية غير تقنية تعتمد على سفر الجيران والأقارب والأصدقاء.  
<sup>٣٩</sup> الرسائل التي بين يدي عددها أربعون رسالة موقعة بين ١٩٩١-٢٠٠٢. على أن الأم قد كتبت إلى ابنها رسائل منذ مغادرته لبنان في العام ١٩٨٥. هذه الرسائل لم أتمكن من الإطلاع عليها بسبب صعوبة إعلانها الابن في البحث عنها! لقد وجهت إليه سؤال حول فحواها، ومدى شبيها والرسائل الأخرى التي بين يدي والتي تمثل مرحلة ما بعد الحرب. أجاب بأن رسائل الحرب أكثر قتامة بسبب البؤس في لبنان. أما القسم الثاني من الرسائل فإنه صادر عن شخص تجاوز الحرب والقلق النفسي والحاجة المادية.

نتوقف عند العلامات اللغوية التعبيرية التي تتم عن الفهم والتذكر والتقييم. والتي ترتبط بأحداث اجتماعية مهمة للأمة. هذه العلامات اللغوية ترتفع وتيرتها أو تخفت حسب قيمتها العاطفية وحسب الأحداث المرتبطة بها، لذلك تصرح عن العاطفة أو تضمنها في خطابها، وفق الشحنة العاطفية للوقائع. تحتوي رسائلها على رسالة عاطفية مبنية على مناداة عاطفة البنوة عند الابن، لكن دون وضع المناداة في إطار درامي، إذ إن دافعها الدفاع عن الرابطة الأمومي، والتأقلم النفسي مع سفر الأولاد. إن الأبعاد العاطفية لخطابها تتعلق بجملة معارفها، التي تتضمن معرفتها السردية، أي كفيات التعبير، وتمثلها لنفسها ولأولادها وانتظاراتها منهم.

إن تعيين العواطف وسماتها تبين توجهها عاطفيا دقيق المعالم، ينتظم وفق محاور، تظهر المكون التقويمي للوقائع بناء على دوافع عاطفية. يتعلق هذا المكون بشخصية الأم الحنونة، وبتكوينها التربوي، وبالمسافة التي تفصلها عن ابنها وإمكانيات متابعتها، وبالقواعد الاجتماعية المعيارية التي تخضع لها، فهي حاضن العاطفة ومثيرها. إن الواقعة المثيرة للعاطفة تضعها الأم ضمن سيناريو، تلتزم به بسبب بعد ابنها عنها، وتلزم به ابنها بدوره، التي تشير إلى خضوعها للنمطية العاطفية المرتبطة بجرح الأمومة من جراء هجرة الأبناء. لذلك نتوقف عند الاتصال العاطفي المقصود وغير المقصود الذي يقطع الخطاب أو يبينه، حيث نتبين ثلاثة معالم: الاحتفاء بالتعبير العاطفي، نقله التفخيمي، ونقله المتعمد. وتدخّل جميعها ضمن الشفرة الثقافية المحددة لعواطف الأمومة التي تجعل من تداولها أمرا عمليا في التواصل.

#### أ- الاحتفاء بالتعبير العاطفي:

تبدي الأم شوقها إلى ابنها دون تردد، وترسل له القبل "أقبلك باشتياق"<sup>٤٠</sup>، "أنا مشتاقة كثير كثير كثير"<sup>٤١</sup> وتعترض على البعد "شو هالحالة كل واحد بعيد عن الآخر مسافة عمر!" ثم تتأديه "يا كمولة"، "شو أخبارك يا كمولتي"<sup>٤٢</sup>، "كيفك يا حبيب القلب"<sup>٤٣</sup>. وتستخدم أحيانا التعابير الشعبية التحببية المستخدمة في الشمال "أمو" (ماما) "كيفك يا أمو"<sup>٤٤</sup>. انه التودد الذي يخلق تواسلا حقيقيا في العمق لأنه بعيد عن اللغة الرسمية، ونجد هنا صوابية رأيي صفوان من أن اللغة الشعبية تخلق ظروف المساواة بين الناس وفرص التعبير عن أنفسهم، وان الحقيقة موجودة في هذه اللغة الدارجة، وان استخدامها يبعد العلاقة عن الصراع.<sup>٤٥</sup> ثم تتغزل به "يا قمر صباح الخير يا أحلى البشر. صباح الخير كل ما الفجر انتشى. أنا مبسوطة لأنني سمعت صوتك البارحة"<sup>٤٦</sup>، أو تتغزل بصورته التي تضعها أمامها حين تكتب له "ابتسامتك تبعث في نفسي الارتياح عن فراقك". ثم تنتظر في آخر صورة أخذت للأولاد مع بعض في أميركا وتمتدح جمالهم.

وتبدو خفة دمها عبر إطراءتها التي توجهها إلى ابنها، حول القبة التي يرتديها في الصورة، وشعره الطويل، وكأنه يريد أن يبدو فنانا، لكنها تعترض بلباقة ومحبة<sup>٤٧</sup>، وأحيانا تقدم له نصائح كما لو انه ما زال صغيرا، فلأن

<sup>٤٠</sup> الرسالة المؤرخة في ١٤ آب ١٩٩١.

<sup>٤١</sup> الرسالة المؤرخة في ١٤ آب ١٩٩١.

<sup>٤٢</sup> الرسالة المؤرخة في ١٤ آب ١٩٩١.

<sup>٤٣</sup> الرسالة المؤرخة في ٢ تشرين الأول ١٩٩١.

<sup>٤٤</sup> الرسالة المؤرخة في ٤ تشرين الثاني ١٩٩١.

<sup>٤٥</sup> مصطفى صفوان، المصدر المذكور، ص ١٤٧-١٥٢.

<sup>٤٦</sup> تقول: "أما انتم الثلاثة الصليب حولكم وكانكم أبناء ملوك كل واحد أحلى من الثاني"، الرسالة المؤرخة في ٢٦ أيار ١٩٩٤

<sup>٤٧</sup> تقول له: "وصورتك على المكتب عظيمة، مربّي شعرك لا أحب هذا الموديل يا ماما الله يرى عليك قبل ما تروح على أميركا قص شعرك مثل الأول لأن أخوتك بهم يضحكوا عليك...ومين فلك هيك حلو واللي بقول لك ببيكون عم يضحك عليك." الرسالة المؤرخة في ١ تشرين الثاني ١٩٩٢.

الحر شديد في البحرين تسأله " عم تلبس برنيطة." ربما هو الاهتمام الذي بإمكان الأم أن تبديه حين تكون على مسافة من ابنها. وتنتهي كلامها الفوري وتعبيرها المؤثر تقريبا بشكل نمطي topos في جميع رسائلها.<sup>٤٨</sup>

### ب-تفخيم التعبير العاطفي:

كان من نصيب أولادها إغداق المديح عليهم لحسن سلوكهم تجاه والديهما، حافظها في ذلك حميمي: الشكر على سلوك سخي<sup>٤٩</sup>. على أن هذا المديح لا يقتصر على ابنها كميل الذي توجه له الرسائل، إنما يطال أخوته أيضا، فهي غالبا ما استخدمت ضمير الجمع حين توجه الكلام إليهم كأن لا تمييز بينهم. احتفظت بالأهمية لأولادها، إذ أن مساعدتهم المالية خلال فترة انخفاض قيمة الليرة اللبنانية، ضمنت رفاهية الأب والأم. وان صدف مدحها صديق ابنها، فإنها تلحقه بمديح مخصص ومميز للابن<sup>٥٠</sup>، كما لو أنها تطيب خاطر ابنها لأنها تجرأت ومدحت صديقه! إن الصورة الايجابية تظل أبناءها فتستبسل في حمايتهم عن طريق هذه الهالة الايجابية التي تحيطهم بها. لا نرى قلقا بل تمسكا بحلم اللقاء " يا ريت منصير بيلد واحد"<sup>٥١</sup>.

هذا الوعد باللقاء يقابله ذكر تلقيها مكالمات في ليلة واحدة من ولدين من أولادها، فتشرع في سرد مشاعرها " إنها ليلة كانت من العمر وقد سمعت صوتهما والحلو أنهما طمنوني عنكما." طريقته دبلوماسية جدا ورقيقة في الوصل بين فرحتها من مهاتفة أولادها في أميركا والتوجه إليه وتذكيره بأنهم ذكروه أيضا، وبالتالي اكتملت الحلقة العاطفية والتوافق العاطفي عند الأم.

ولا يغيب عن بالها تشجيعه ليصبح " كبير المصورين في العالم".<sup>٥٢</sup>

وحين قرر الزواج في كندا، فإنها تغدق النصائح والوصايا عليه التي يرافقها الدعم المعنوي للأبن أمام مسؤولياته الجديدة: "إني متأكدة منك بأنك سوف تكون الزوج الصالح والمحب. اطلب منك أن تكون لزوجتك الزوج الوفي والصديق المخلص والحبيب الدائم (...). لتكن الثقة والتفاهم بينكما دائما وخصوصا الاحترام (..) اطلب منك أن تسعد زوجتك بكل قوتك". ثم تفخم بابنها وتسرده مثالبه موجّهة كلامها إلى العروس: "إن كميل قليل من أمثاله بأخلاقه".<sup>٥٣</sup> وتؤطر المديح والتشجيع والتفخيم بالرضى الإلهي لحراستهما، فتغتني نصائحها بمقدار من الورع<sup>٥٤</sup>. يخيم على هذا المشهد جو وفاقي يخلو من التناقض والالتباس والقلق، يحول وجهة الغياب ويقلبه إلى حضور، يشكل سندا داعما لخطوات الابن الجديدة، يحصنه ويجهد في إبقائه على سيادته لنفسه وفق معايير الحب والإخلاص.

### ج-نقل التعبير العاطفي المتعمد:

<sup>٤٨</sup> تنتهي رسائلها على الشكل التالي: " وأخيرا أضمك إلى قلبي وأقبلك ألوف القبلات سائلة الله أن يعطيك الصحة والنجاح والتوفيق بكل أعمالك. والرب يرضى عليك. أصلي دائما من أجلك. امك المشتاقة دوما. أليس". الرسالة المؤرخة في ٢ تشرين الأول ١٩٩١.

<sup>٤٩</sup> مثل إرسال بعض المال والقماش لحياطة فساتين وإرسال صورهم وصور عائلتهم، الخ.  
<sup>٥٠</sup> تصف صديق ابنها بأنه "شاب لطيف وكبار الهيئة" لكنها سرعان ما تعود إلى مدح ابنها " ولكن أنت ما في أحسن منك". الرسالة المؤرخة في ٢٦ أيار ١٩٩٤.

<sup>٥١</sup> تضيف قائلة له: " يا كميل إني أعد الأيام والساعات لوقت لقاءك. وأتمنى ان تمشي هذه الأيام بسرعة لأنعم برويتك الحبيبة لأني مشتاقة أن أضمك إلى قلبي بعد طول هذا الوقت الله يقرب أيام اللقاء." الرسالة المؤرخة في ٤ تشرين الثاني ١٩٩١.

<sup>٥٢</sup> الرسالة المؤرخة في ٢٦ آب ١٩٩٦.

<sup>٥٣</sup> الرسالة المؤرخة في ٤ كانون الأول ١٩٩٥.

<sup>٥٤</sup> الرسالة المؤرخة في ١٥ كانون الأول ١٩٩٥.

تتعهد الأم التركيز عاطفيا على نقاط رئيسية، تظهر طبائعها في السرد بين إظهار غزارة الشوق والاهتمام والامتنان والإخبار الذي يضح بحضور الأولاد أو الاستعداد لحضورهم. وهي في كل ذلك تتوجه إلى ابنها في الحاضر كشخص ناضج ومسؤول ولا تعود إلى طفولته. يدفعنا ذلك إلى الإقرار بقوة شخصيتها في اتزانها حيث تحتفظ لنفسها بمكانة وتفسح بدورها محلا لمكانة الابن بموازاتها.

تستدعي عاطفة الابن لمشاركتها عاطفتها تجاهه، حاثه إياه على الكتابة إليها وعلى إرسال صور له، فنقول له: "أدوب شوقا لمعرفة أخبارك حريا".<sup>٥٥</sup> وتضيف "كاتبنا دائما يا كميل لان الكتابة نصف مشاهدة كما تعلم".<sup>٥٦</sup> وبعد زواجه يصير طلب الكتابة من العروسين معا،<sup>٥٧</sup> "طمنوني عنكم دائما لأنني افرح بأخباركم كلكم".<sup>٥٨</sup> وتستدعي عاطفته بطريقة أخرى حين تركز في العديد من رسائلها على حب مشترك بينها وبين ابنها، ألا وهو حب فصل الشتاء والطقس الغائم والممطر، تقول "أنت وأنا منحب هذا الطقس وبيتعجب العالم على هذا الذوق. قولك لي منحب هالطقس! لأن نفسنا تميل إلى الرزانة والرصانة. هل لا زلت كذلك؟". وتستدعي عاطفته لتلبية رغبتها في زواجه هو وأخوته "استحو" "صرنا ختارية" فتذكره بأنها كبرت في العمر وتريد أن ترى أحفادها. وتستدعي إضافة إلى بنوته، أخوته فتذكر أولادها جميعا وفي كل رسالة. فالحديث الافرادي مع ابنها سرعان ما يمتد ليطال بقية الإخوة، في حركة مدروسة لتوطيد الصلاة العاطفية بينهم. وتسبغ هذا الذكر بالصفات الايجابية "أولاد صالحين". وإذا كان الأولاد صالحين فان غيابهم بعد اللقاء لا بد أن يحدث فجوة عاطفية لدى الأم "بسام ترك فراغا هائلا في البيت".<sup>٥٩</sup> ، وعن كميل تقول "لما رجعنا إلى البيت كان البيت بشع بخلاف لما كنت فيه مملؤ بالفرح والسعادة".<sup>٦٠</sup> ، دائما عم أتذكر أيام أميركا لقد كانت هذه الأيام من أجمل أيام سفرتي. لأنني تمتعت بوجودكم انتم الأربعة".<sup>٦١</sup> ومع هذا الغياب تفرغ عاطفتها في السؤال عن أحوال ابنها وتوجيهه للاهتمام بمستقبله.<sup>٦٢</sup>

ثم تقوم بوقفات وصفية تعنى بوصف البيت بعد ترميمه، مرتبطة بزمنها العاطفي. فتعرض وتقدم الوقائع من عين أم تحيل التحسينات من جهة إلى فضل أولادها، وتغري الأولاد من جهة أخرى للمجيء إلى البيت والاستمتاع بهذه التحسينات، تقول "اليوم البيت صار جديد وكأنه عمار السنة"<sup>٦٣</sup>، و"طرشنا البيت ابيض والشبابيك دهانها بني وطالع كثير حلو(..) الحمامات صارت كلها فرنجي(..) عايشين من جديد بفضل الله وفضلكم يا أحبائ قلبي"، "البيت صار عظيما".<sup>٦٤</sup> وتنتهي وصف هذا الخير بالدعوات لهم.<sup>٦٥</sup>

<sup>٥٥</sup> الرسالة المؤرخة في ٢ تشرين الأول ١٩٩١.

<sup>٥٦</sup> الرسالة المؤرخة في ٢٦ كانون الأول ١٩٩٦.

<sup>٥٧</sup> الرسالة المؤرخة في ٢٣ كانون الثاني ١٩٩٦.

<sup>٥٨</sup> الرسالة المؤرخة في ٢٦ آب ١٩٩٦.

<sup>٥٩</sup> الرسالة المؤرخة في ٤ تشرين الثاني ١٩٩١.

<sup>٦٠</sup> الرسالة المؤرخة في ٢١ كانون الثاني ١٩٩٢.

<sup>٦١</sup> الرسالة المؤرخة في ١٤ آب ١٩٩١.

<sup>٦٢</sup> الرسالة المؤرخة في ٤ تشرين الثاني ١٩٩١.

<sup>٦٣</sup> الرسالة المؤرخة في ١٤ آب ١٩٩١.

<sup>٦٤</sup> الرسالة المؤرخة في ١٧ تشرين الأول ١٩٩١.

<sup>٦٥</sup> الرسالة مؤرخة في ٤ تشرين الثاني ١٩٩١.

نستطيع أن نميز إذا بين ثلاث مسافات مترابطة تفضي إلى بعضها البعض، في سياق عاطفي تلتقي فيه الأم/الذات بهدفها، فنرى جليا ترابط الذات والهدف. على أن الأم تلعب على حدي العاطفة والعقل بتوازن شديد دون أن تخل باحديهما، حيث تخضع المشاعر لنسق من الأسباب المتينة. ويؤشر إظهار عواطفها، على معارفها الإيمانية والاعتقادية،<sup>٦٦</sup> المبنية على القيم الاجتماعية، وإظهار العواطف مقصود لضبط حركة الأبناء المنتشرين في العالم، وضبط إيقاع ارتباطهم العاطفي بالبنوة والأخوة. لذلك فإن قوة عواطف الأم وزخمها، لا تولد القلق أو الإحساس بالذنب عند الابن، بل على العكس تماما إنها تستثير المواقف الايجابية من قبلها و قبله. سعيدة بإنجازات أولادها تستحثهم على المثابرة والمتابعة، رغم ندائها الموجه إليهم ليأتوا إلى زيارتها. من وجهة نظرنا، إن هذا الميزان العاطفي الذي تمسكه الأم والذي يحقق ذاتها يعود إلى شخصيتها القوية والمستقلة، كما وصفها ابنها، والى علاقتها الجيدة بزوجها، كما بدا في رسائلها. ذلك يناقض بعض الاطروحات حول علاقة الأم بابنها، التي تفيد بان قوة إحساس الأم بتخلي ابنها عنها وبعدم حاجته إليها، تتجلى بإحساس الابن بالذنب.<sup>٦٧</sup>

وهذا الميزان بين العقل والعاطفة يتجلى حين تحرص على إظهار خوفها على صورة الواحد منهم تجاه الآخر، فإذا أهدى احد الأولاد، على سبيل المثال، فردا من أفراد العائلة بمناسبة خاصة، فإنها تطلب من أبنائها الآخرين المبادرة للقيام بالتصرف نفسه، حتى أنها تخبره عن المبلغ المدفوع للهدية. فهي تبحث على دوام المساواة بينهم. كما تحرص على إحقاق حقوق أولادها المادية، إذ تخبر ابنها كميل في أحد رسائلها، أنها ووالده كانا السبب في خسارة احد ابنائهما مبلغا من المال، وضعه في حوزتهما في البنك، فارتأيا تغيير العملة من الدولار إلى الليرة من أجل الفائدة، وحين ارتفع الدولار وتدننت قيمة الليرة، خسر الابن مبلغا كبيرا. إلا أنها وزوجها بادرا إلى إصلاح الأمر عن طريق بيع أرض.

إن علاقتها العاطفية بأولادها لا تحدها المادة، لأنها امرأة عاملة وزوجها ملاك وقد علمهم في أفضل المدارس والجامعات. وهي تبدو امرأة ذكية عاطفيا وشاطرة عمليا، فخلال الحرب عرضت الدولة على موظفيها إنهاء خدماتهم واخذ تعويضاتهم. فعلت ذلك لكن بعد سنوات تبين لها أن المبلغ الذي أخذته كان قليلا، ثم عادت الدولة وسمحت لموظفيها بإعادة دفع ما سحبوه من تعويض لأخذ معاش تقاعدي، فبادرت إلى تغيير وضعها. وحين يدعوها ابنها إلى البحرين فإنها تتردد إذ تفكر بتوفير التكلفة عليه. إن علاقتها بأولادها طابعها السؤال الحنون عنهم، فهي لا تتردد في المناسبات العائلية بإهدائهم هدايا سخية. لقد اكتسبت المعرفة المفصلية بالنفس وبالأخر، ذلك قوى قدرتها على تتبع المراحل وعهود الحضانة والتحولت، وهي في منتهى التسامح. فالآمال التي تضعها في أبنائها لا تفرضها عليهم لدرجة شلل حياتهم أو إعاقتهم، بل على العكس من ذلك تماما، إذ كل أولادها ناجحون مهنيا. وعندما نحاول أن نفهم هذه الشخصية فإننا نجد أنها ليست محبطة في حياتها، ولا تسعى إلا لسعادة أولادها، لان سعادتها من سعادتهم كما تقول. لا بد أنها امرأة راضية إلى حد بعيد عن مسارها الذاتي الذي آلت إليه.

<sup>٦٦</sup> P. Charaudeau, in: Dictionnaire D'analyse du discours, op.cit p. 219.  
<sup>٦٧</sup> Carol Klein, Mères et fils, Robert Laffont, Paris 1988, p.88.

وتختتم هذا المسار العاطفي بإقفالها الحلقة على هبة عاطفية بقولها "حرمت من البنات ولكن أولادي كانوا يتمتعون بعاطفة البنت وحنوها". هكذا حققت الأم أهدافها في إرساء علاقات عاطفية متوازنة مع أبنائها، محققة بذلك توازن أبناءها العاطفي بعيدا عن التسلط. غير إننا نتساءل ألا يمكن لسلطتها أن تتوارى وراء هذا التوازن؟

٢- سلطة الأم برمجة مستترة:

يقال أن الشخص حين لا يشعر بقوته رجلا كان أم امرأة، فإنه يميل إلى البحث عن سلطة في دور يتطلب النفوذ، وإن غالبية النساء في المجتمع التقليدي وجدت ضالتها في الأمومة. فالأم في انقطاعها عن مجالات التأثير يمكنها أن ترضي توقعها إلى النفوذ في علاقاتها بأولادها، حيث تكسب نفسها صورة لها، تعاكس صورة الضعف في المجال العام، فتفرض حضورها بقوة.<sup>٦٨</sup> ألم يؤكد فرويد أن علاقة الأم بابنها وحدها بإمكانها أن تحمل إلى الأم رضى دون حدود؟ لكن أريك فروم رفض ذلك واعتبرها دليلا على شوفينية فرويد الذكورية، إذ إن كتابات فرويد لا تتصور مجتمعا الرجال والنساء يحظين بفرص ممارسة السلطة في المجال العام وتحقيق ذواتهن فيه. فهل يصح هذا الموقف على أليس؟

أليس امرأة قوية كما وصفها ابنها<sup>٦٩</sup> وكما ظهرت لنا في الرسائل، تلعب أدوارا ثلاث في مراسلتها لابنها تشير إلى قوتها: بناء عالم صغير حميم، الأرشفة وقنال التوصيل وتثبيت سلسلة المراجع.

أولا-بناء عالم صغير حميم micro-univers يخصصها ويخص ابنها، عالم رحمي دافىء، يعنى بتقديم بناء سردي لواقعة من حياتها اليومية بغية توصيلها إليه بعفوية واسترسال، يسعف الأم في تواصلها مع ابنها، ويطمئن الابن حين يطلع على هذا العالم الصغير الحميم الذي يخصه. كي تصل الأم إلى غايتها في التواصل الحميم يسعفها هذا النموذج -العالم الصغير الحميم- دون أن يحمل متطلبات صارمة، لكنه قادر على حصولها على النتيجة المرجوة من الابن وهي التواصل فيما يتعلق بالمعيش، مع الاكتفاء بتسجيل خواصه المهمة التي تتوافق مع تمثيلات الأم وابنها حول الأمومة والبنوة<sup>٧٠</sup>. فباب هذا العالم يفتح وينغلق بمفتاحين: مفتاح الأم ومفتاح ابنها رغم استناده إلى مرجعية ثقافية/اجتماعية.

ثانيا-تقوم بالأرشفة لأسرتها، بمعنى أنها تزود أولادها بأخبار بعضهم البعض حتى وإن كانوا على اتصال مباشر فيما بينهم. تزود ابنها بأخبار الضيعة والأقارب والأحوال المعيشية والبنية التحتية في البلد، التي تعيق أحيانا وتيرة تراسلها مع ابنها. وتزوده أحيانا بمواقف الأب من بعض القضايا العائلية، مثل مشروع زواج أخيه من شابة يرفضها الأب، ذلك كي يتدخل لصالح أخيه. فهي مركز السجل الأسري وقناة التوصيل بهدف الإبلاغ والاتصال والتفاعل بين الأولاد وأمه وأبيهم، وبين الأولاد مع بعضهم البعض، بين الأولاد وزوجاتهم والعائلة والأصدقاء، لإرساء قواعد عائلية ثابتة البنين.

<sup>٦٨</sup> Carol Klein, op.cit, pp 94-110

<sup>٦٩</sup> يؤكد ابنها في المقابلة، أنها عانت مؤخرا من مرض السرطان في الغدد وخضعت لعمليات وعلاجات في أميركا منذ العام ١٩٨٧ ولغاية اليوم. إلا أنها لا تشكو. وهي تنتقل بين أميركا والضيعة حيث تمضي الصيف فيها "هي قوية جدا".

<sup>٧٠</sup> إنها ترسم هذا العالم الصغير الحميم وفق معارفها وقيمتها وأهدافها.

ثالثا- تمثل الأم المرجعية المكانية (البيت/الأم) والأخلاقية والدينية<sup>٧١</sup>. فهي المذكر بضرورة العودة إلى المكان/الأم الملاذ الأمن الذي يزوي بدونهم، والمؤكد على قيم أبنائها الأخلاقية. تذكرهم بجميع المناسبات الدينية وتشرح بعضها، وتقدم القرابين عنهم وتهبهم القدايس وترسل إليهم محفوظات مقدسة لحمايتهم، لكي يبقوا ضمن الإطار الإيماني وفقا لديانتها ومعتقداتها الاجتماعية. فإيمانها الديني مرتبط بالعاطفة طالما انه مسخر لحماية الأولاد وعائلاتهم وللصلوات والدعوات من أجل صحتهم وحفظهم الجيدة في الحياة. إن الطقوس هي إحدى الطرق التي يضع بها البشر حياتهم في مشهد منظوري<sup>٧٢</sup>، فالطقوس تستدعي المخاوف والقلق وتدعها للرقاد، وتستدعي الأمانى وتدعها تحيا في النفس. إنها أم روحية ودينية تغذي نفوس وأرواح أولادها. في النهاية ماذا تبقى للابن من رسائلها بعد قراءتها؟ إنها العاطفة.

إن تأديتها لهذه الأدوار الثلاثة التي نعتبرها مفتاحا هاما في العلاقات الأسرية، تجعلنا نؤكد أنها تمثل الأم التي تمتلك قوة معتدلة ونافعة<sup>٧٣</sup>، إذ تظهر قوة كافية لان تكون نفسها، وتعبر عنها، وتبين براحة وثقة انتماءاتها، وتفي بمطلب الأمانة حيال الذات. حينئذ فانه باستطاعتها التأثير في محيطها العائلي، و التأثير الفاعل في وعي أبنائها الثقافي. إذا كان حقا كل إنسان يحمل في ذاته الشرط الإنساني، فذلك يعني أن كل مسار فردي هو باب الدخول إلى فهم الآخرين أيضا. نستنتج أنها تمثل ذاتا عارفة، ومتدخلة في مجرى الأحداث، تتحرك في ميدان العائلة موجهة إياها نحو منطق الأمومة، ومنطق العلاقات العائلية، مشكلة سندا مرجعيا لأولاد يعيشون في الغرب حيث "ما حدا لحدا" كما تقول. إنها تقيم التوازن في إرجاعهم إلى التقاليد العائلية والدينية. الحدود وهمية إلى حد ما، طالما أن العالم الصغير الحميم الذي تبنيه لها ولابنها يملك مفتاحين هما ملكيتهما معا.

### ٣- هي وزوجها:

إن قارئ رسائلها ينتابه الفضول لمعرفة علاقة أليس المرأة القوية المسؤولة المؤمنة، بزوجها. إن رسائلها إلى ابنها، هي المولجة بكتابتها وإعطاء الأخبار عنهما<sup>٧٤</sup>، لان الأب لا يحب الكتابة، وبما أنها تسرد الوقائع عنها وعنه، فان موقعه في رسائلها محصور في: إرسال سلامه وقبلاته إلى ابنه وتمنياته له بالتوفيق والنجاح.<sup>٧٥</sup> وتشير أحيانا إلى ضجره من الضيعة، هو المتعلق في السكن فيها. إلا أنها تكتب صراحة باسمها واسم زوجها فريد في المناسبات العائلية المهمة، مثل زواج ابنها كميل، وتضع اسمه في الأول مع أن الرسالة مكتوبة بصيغة المتكلم، لكنها تضيف في الخاتمة قبل التوقيع "أبوك بخير والحمد

<sup>٧١</sup> يقول ابنها أن إيمانها الديني عميق جدا فهي إلى الآن في فلوريدا حيث تمضي الشتاء عند أخي بسبب علاجها فإنها لا تسأل أين هي الكنيسة، بل ما هي أقرب طريق للوصول إليها. تقول "أعشق الصلاة والكنيسة".

<sup>٧٢</sup> كلاريسا بنكولا، المصدر المذكور، ص. ٢٤٢.

<sup>٧٣</sup> يؤكد ابنها كميل زخريا أن صلابتها تظهر في الأوقات الصعبة " في العادة إذا حكها الواحد قليلا فإنها تبكي، على أشياء بسيطة. لكن حين ماتت أختها لم تبك، وحين مات أبي بكيت قليلا ثم من بعدها بدت قوية. كانت أقوى مني. أنا حين توفي أبي وفي الكنيسة وفي الدفن أتى على ذهني صورتين محزنتين:

صورة طفلي الصغير وهو في بدايات مشيه وكان والدي ينوي الحضور إلى البحرين لرؤيته، وصورة اخرى تعود إلى سنة حين كان ابني البكر ينام هائنا على حضنه".

<sup>٧٤</sup> في الرسالة المؤرخة في ٢٦ آب ١٩٩٦ تقول لابنها وكنتها في معرض تذكرها مواضيع للحديث عنها: "شو بدي خبركم عنا".

<sup>٧٥</sup> الرسالة المؤرخة في ١٥ كانون الأول ١٩٩٥.

الله ويقبلكما ويهنتكما".<sup>٧٦</sup> كما أنها في مناسبة المعايدة بالسنة الجديدة توقع الرسالة باسم زوجها واسمها،<sup>٧٧</sup> وكذلك حين حظي الابن بوليدته البكر.<sup>٧٨</sup> وحين ترسل هدايا بمناسبة المولود الجديد مع أحد المسافرين.<sup>٧٩</sup> ثم يرسلان لاحقا هدية أخرى تؤكد لحفيدها أن الهدية من جده.<sup>٨٠</sup> نلاحظ في هذا الصدد لياقتها في عدم ذكر قيمة الهدية المالية المرسله إليه، تعلق فقط من أن القطعة النقدية "جديدة" و"أبوك يحب الجديد". أحيانا وفيما يخص إعطاء تفاصيل حول بعض الوقائع، فإنها تستخدم ضمير الجمع، لتؤكد أن ما تسرده هي والوالد معنيين به<sup>٨١</sup>، أو في مناسبة عيد ميلاد أحد الأولاد فإنهما يتصلان معا به للتهنئة.<sup>٨٢</sup>

مرة واحدة ذكرت خلافه مع أحد أولاده حول الشابة التي اختارها للزواج فعلق قائلة: "الله ينجينا من أبوك ما عم يعجبه عجب وما عم يشوف تشجيع بسام منه وأنا الله يساعدي بين أنتين عقلهم(دك) يا ريت في حدا منكم معي لكي نقطع عالقصة. لأنه أنا رايدة أن اخطب له هذه الفتاة قبل سفرنا. والله وكيلك ما فيني احكي مع أبوك بيطلع علي مثل الصاروخ. انه يحب هذه الفتاة ومتفاهمين."<sup>٨٣</sup> انه موقف مميز من الأم التي تريد زواج ابنها ممن أحب واختار عكس الأب.<sup>٨٤</sup> يعلق الابن: "أبي دائما هذا موقفه حتى معي. رفض من أحببت واخترت بينما هي وافقت، كانت تساندنا جدا<sup>٨٥</sup>. البابا يعترض على زواج ابنه من غريبة".<sup>٨٦</sup>

جل ما نستنتج أن الزوج/الأب كان حاضرا في الرسائل بأوجه شتى، غلب عليها حضوره العاطفي السعيد بأولاده والكريم حيالهم، مع تحفظه المبدئي على خيارات أبنائه الزوجية، ومع تراجعها لاحقا طالما أن الأبناء حققوا إرادتهم. قدمته أليس باحترام وتحفظ ولم تأت بتاتا على ذكر سير خلافية فيما بينها وبينه، إنما أتت على ذكر واقعة واحدة كان موضوع الخلاف فيها مشروع زواج الابن. فهل كانت راضية عن عيشها برفقتها؟ أم لان أولادها ذكورا لا تسترسل في الأحاديث الذاتية التي تكشف الأسرار؟

من مقابلة الابن ورؤية صور العائلة، يتبين لنا أن الأب في الشكل أجمل ووضعه المالي أفضل. كان ملاك أراضي زيتون في الضيعة ووجيه من وجهائها، يعيش من أرضه<sup>٨٧</sup>، لم يكمل تعليمه، إلا انه علم أولاده في أفضل المدارس والجامعات في الخارج، ولم يتخذ مهنة ثابتة، أنيق يحب "الجخ"<sup>٨٨</sup>، كان متعلقا بضيعة وأسرته لذلك رفض العمل في الخارج. أعاد الابن الامر إلى دلال أمه له<sup>٨٩</sup>. كيف

<sup>٧٦</sup> الرسالة المؤرخة في ٤ كانون الأول ١٩٩٥.

<sup>٧٧</sup> الرسالة المؤرخة في ٩ كانون الأول ١٩٩٧.

<sup>٧٨</sup> الرسالة المؤرخة في ٣ آب ١٩٩٨.

<sup>٧٩</sup> الرسالة المؤرخة في ١ أيلول ١٩٩٨.

<sup>٨٠</sup> الرسالة المؤرخة في ٢ شباط ١٩٩٩.

<sup>٨١</sup> تقول: "لقد امضينا يا كميل ليلة العيد في البيت-تقصد عيد الميلاد- أما ليلة رأس السنة فسهرنا على ٢٧". الرسالة المؤرخة في ٥ كانون الثاني ١٩٩٦.

<sup>٨٢</sup> الرسالة المؤرخة في ٩ نيسان ١٩٩٦.

<sup>٨٣</sup> الرسالة المؤرخة في ٩ حزيران ١٩٩٤.

<sup>٨٤</sup> يبدو أن الابن عاد وتزوج ممن أحب.

<sup>٨٥</sup> في هذا الخصوص نذكر في الرسالة المؤرخة في ٢٦ أيار ١٩٩٤ "وأنا كل ما تكلمت معه بها لموضوع منتخاق ما بيسمع لي كلمة(..). الله يساعدي على الأثنين إنني كبش المحرقة بينهم. ما تنسى أن تقول له ما قلته لك."

<sup>٨٦</sup> في الرسالة المؤرخة في ١٥ كانون الأول ١٩٩٥ تذكر الأم "كما أن أبائك يا كميل يبارك زواجك ويطلب لك السعادة والتوفيق."

<sup>٨٧</sup> هذا لا يعني انه كان غنيا خاصة مع تدهور الأوضاع الاقتصادية في لبنان من جراء الحرب، إذ تشير الأم صراحة إلى هذا الموضوع حين تقم العروس التي اختارها ابنها فتقول في رسالتها المؤرخة في ٢٦ أيار ١٩٩٤ "إنها ليست بطاله متعلمة والجمال وسط وأنها فقيرة مثلنا".

<sup>٨٨</sup> يقول عن أبيه: "حين كنا في الجامعات صار يبيع أراضي الزيتون من أجل تعليمنا دون أنانية. لكن أستنتج انه كان أنانيا يحب نفسه وأن يبدو أنيقا، حدائه لامع دائما ويحمل السبحة. انه لا يحب أن يتعب نفسه، حتى انه كاد يبيع أرض البيت، فعرف الأهل وساعده."

<sup>٨٩</sup> يقول الابن: "لم تضغط عليه مطلقا. هي دالته هكذا أرى اليوم لكن أنذاك كنت أرى في ذلك ضعفها تجاهه. إنني الآن أغلط أبي الله يرحمه تسنت له فرص كثيرة لكنه لم يأخذها. لأن أمي جيدة وهو لديه ما يكفي من المال، في الوقت الذي كان متاحا له أن يكبر." توفي الأب في ٦ تموز ٢٠٠١.

يفسر إذا إعطاء الأم صورة ايجابية عن الوالد؟ أجاب "هي مثالية. قلت لها أن ابني اليكس يشبه أبي صعب وعنيد. فأجابت: إن شاء الله يجد زوجة مثلي!" يشير هذا الموقف إلى عمق وعي الأم بشخصية الأب وسلوكه، وقدرتها على التعامل مع هذه الشخصية النزقة والمدلة التي تتحلّى بالهيبة. لم تطلق عليه أحكاماً معيارية كما فعل الابن، بل تعاملت معه من موقف عملاني يتيح للأب وكذلك للأولاد اختيار نوع الحياة التي يفضلونها. وزوجها على العكس منها، غير متدين لا يذهب إلى الكنيسة. والحال كذلك ألا يشير هذا الموقف إلى قدراتها الفذة في إتاحة الفرص أمام أفراد أسرتها لتحقيق ذواتهم كما يرغبون؟<sup>٩٠</sup>

على أن الابن ختم حديثه عن أبيه بتذكره حادثة مؤثرة، حين كان الأب على فراش الموت، فإن آخر شيء فعله إمساكه يد زوجته والنظر إليها بحنان بالغ، وهو لا يستطع الكلام، كأنما يبدي شكره لها وجليل امتنانه. يفسر كميل هذه الحركة بأن أبيه قام بعمل جيد في إرساله هذه الرسالة إلى أمي، إذ ليس من عاداته الشكر والامتنان، هو المدلل. في لحظة الموت عادت ذاته إلى ذاتها، بينما ذات الزوجة لم تغادرها. لقد قابلت قوة الأب المالية والجمالية بقوة ذكائها وحنكها في إدارته وإدارة العائلة. إنها مركز استقرار العائلة والبيت الذي لا يرتحل.

#### ٤- هي وكناتها:

تدور علاقتها بكناتها على محاور ثلاث:

المحور الأول- التودد إليهن.

يظهر التودد في توجيهها الرسائل إلى ابنها وزوجته "ولديّ الحبيبين كميل وسلاف"، وفي الصلاة والدعاء لهما بالتوفيق، وإنهاء الرسائل بالتوجه إليهما سوياً "يا حبيبي يا كميل ويا سلاف أقبلكما مع أبيك".<sup>٩١</sup> أو إغداق بركاتها عليهما "اطلب من الله أن يكلل حياتكما بالحب والسعادة والصحة". والتفرد بمدح الكنة "مبروك يا سلاف على قبول الهجرة أنك تستأهلين كل خير".<sup>٩٢</sup> أو عن طريق إرسالها هدية لها "سوف أرسل عقد وحلق ذهب إلى سلاف تذكاري مني".<sup>٩٣</sup>

المحور الثاني- إعطاء قيمة ذاتية لكل واحد منهم وكذلك قيمة عائلية/اجتماعية. تمتدح أخلاق وأصول سلاف التي تعود إلى تحدرها "من عائلة محترمة ومن أم قليل من أمثالها"<sup>٩٤</sup>، "أنها امرأة فاضلة".<sup>٩٥</sup> تمتدح زوجة بسام من أنها "عاقلة وذكية وبتفهم". ثم تمتدح الكلمة التي ألقتها كمنها ماريان في مآتم أبيها.<sup>٩٦</sup> وكذلك تطري على تصرف جيهان زوجة ابنها البكر في أميركا لحسن معاملتها لها ولزوجها.<sup>٩٧</sup> لا تمنع هذه المدائح زلات لسان

<sup>٩٠</sup> ذكر الابن وقائع تحدث في بيتهم في الضيعة تشير إلى مدى استيعابها لعادات سكان الضيعة وتكيفها مع هذه البيئة هي ابنة المدينة" يأتي الناس أحيانا لزيارتها في الساعة السادسة ونصف. انصحها بان لا تستقبلهم. لكنها ترفض وتريد إرغامي على السلام عليهم. إنها تتقبل أشياء على حساب حريتها." طبعا هناك فروقات بين الأجيال ، لا سيما الفروقات الثقافية التي تعود إلى هجرة الابن وإقامته في الغرب.

<sup>٩١</sup> الرسائل المؤرخة في ١٥ كانون الأول ١٩٩٥ و ٢٩ أيلول ١٩٩٥.

<sup>٩٢</sup> الرسالة المؤرخة في ٩ نيسان ١٩٩٦.

<sup>٩٣</sup> الرسالة المؤرخة في ٢٦ آب ١٩٩٦.

<sup>٩٤</sup> الرسالة المؤرخة في ٤ كانون الأول ١٩٩٥.

<sup>٩٥</sup> الرسالة المؤرخة في ٥ كانون الثاني ١٩٩٦.

<sup>٩٦</sup> الرسالة المؤرخة في ١٣ أيار ١٩٩٦.

<sup>٩٧</sup> تقول: "إني لا أنسى ولا بد أن أذكر جيهان زوجة جورج الحبيبة التي كانت لي بمثابة ابنة. وذلك عندما كان المرحوم والدكم يتلقى العلاج عندها. لم تتأفف يوماً بل كانت تعامله كأب لها (.) إن زوجة جورج والطفلة ايليسا كانا لي خير عزاء بعد أن خسرت رفيق عمري. كانت تلاطمني وتحترمني جداً." الرسالة الوصية المؤرخة في ١ أيار ٢٠٠٢.

تشير إلى أنها تتعاطى مع كنتها كما لو أنها قاصرة، ذلك يتناقض ومواقفها المثالية وذكائها المعهود "يا سلاف كيف وكيف هالجامعة معك. هل أم كامل عندكم-أمها-؟ أتمنى أن ترسل لي مكتوب مع روز تشرح لي عن دروسك وشغلك. التلفون ما بفش الخلق".<sup>٩٨</sup> إنها تبحث عن تفاصيل حياتها اليومية.

المحور الثالث-وصايا لهن لصالح أبنائها. فقيل عرس كميل توجه إليه بعض الوصايا التي ذكرناها وترفقها بوصايا أخرى تتعلق بالكنة تتخذ طابعا وعظيا "يا ابنتي وحببتي سلاف. اطلب منك أن تظلي حبيبة العمر لكميل ويقدر ما أنت تسعديه بقدر ما أنا أعبدك (..) إني متأكدة بان تكوني له الزوجة المثالية بكل ما في الكلمة من معنى".<sup>٩٩</sup> وفي موقع آخر " بقدر ما تحببته سوف أحبك".<sup>١٠٠</sup> ترى هل تتصور الأم التي تتجذب ذكور أنهم المحور، أم تلك مسألة تتعلق بجيل أليس ووعيه الثقافي؟ على أنها تتدارك الموقف قائلة " يا سلاف كيف يا حببتي هل أنت راضية على كميل؟"<sup>١٠١</sup> "انتبها لبعضكما وبالغربة ما حدا لحدا".<sup>١٠٢</sup> وأخيرا تعطي نصائح تدل على السذاجة التي تتناقض وذكائها المعهود. ربما الفرحة بقدم الحفيد قد غلبت على تعقلها<sup>١٠٣</sup>، ثم تردف هذا الموقف بما يدل على بهجتها بالمولود " إن كل الضيعة تأتي لتبارك لنا بالطفل وأنا عاملة ضيافة لائقة على شرف ولي العهد".<sup>١٠٤</sup> وحين سألت كميل هل قرأت زوجتك الرسائل الموجهة لك ولها؟ أجاب بالنفي، معيدا الامر إلى شخصية زوجته المتمسكة بالخصوصية "هي تحب الماما لكن تجدها ميالة للمبالغة".

كي نفهم بعمق علاقتها بزوجها وأولادها وكناتها علينا إخراج الأم من إطار المثالية التي يحلو لها وضع نفسها فيها، ومن إطار قوة الشخصية المتمرس بالذكاء العاطفي والعقل العملي والتي ترتكب بعض الهفوات، ونضعها في إطار آخر رسالة كتبتها إلى ابنها وهي رسالة وصية<sup>١٠٥</sup> موجهة إلى أولادها الأربعة<sup>١٠٦</sup>، كتبتها بعد عام على وفاة زوجها.<sup>١٠٧</sup> حيث نرى إلى الأمومة كرمز إلى سيكولوجية المجتمع وذاكرته وعاطفته وحاجاته الدنيوية. إنها تقيم الميزان بينها وبين زوجها حين تموضع الرزق الذي حصله في حياتها في أولادها<sup>١٠٨</sup>. ثم تقيم الميزان بين أولادها وزوجاتهم<sup>١٠٩</sup> وتوصي الأبناء بالتكاتف وتوصي الكنات بالتعاضد، ثم تعود إلى توصيه أبنائها

<sup>٩٨</sup> إنها الرسالة الوحيدة غير المؤرخة لكنها من سياق الأحداث تدل إلى أنها تقع في العام ١٩٩٧.

<sup>٩٩</sup> الرسالة المؤرخة في ٤ كانون الأول ١٩٩٥.

<sup>١٠٠</sup> الرسالة المؤرخة في ٢٩ أيلول ١٩٩٥.

<sup>١٠١</sup> الرسالة المؤرخة في ٥ كانون الثاني ١٩٩٦.

<sup>١٠٢</sup> الرسالة المؤرخة في ٢٣ كانون الثاني ١٩٩٦.

<sup>١٠٣</sup> تقول لكنتها: " انتبهي إلى صحتك والى حليبك اشربي من الحليب كثيرا. عن الرضاعة هي أحسن شيء للطفل تبعد عنه الأمراض وكل شيء مؤذي. أر

تعلمي ما يقوله المثل (هيذا شبعان حليب أمو) يعني قوي الجسد والعقل والتفكير". الرسالة المؤرخة في ٣ آب ١٩٩٨.

<sup>١٠٤</sup> الرسالة المؤرخة في ٣ آب ١٩٩٨.

<sup>١٠٥</sup> إنها وصايا معنوية وأخلاقية، فدرب الأم مرسوم بخطى الإنجيل: المسار، الحياة، الحقيقة.

<sup>١٠٦</sup> الرسالة مؤرخة في ١ أيار ٢٠٠٢ وتطلب من ابنها "اقرأ هذه الرسالة واحتفظ بها إذا أردت". هذه أول مرة وآخر مرة تطلب منه هذا الطلب.

<sup>١٠٧</sup> تحدد في وصيتها تاريخ وفاة الزوج "يوم الجمعة ٦ تموز الساعة الخامسة مساء ٢٠٠١ لكي تذكروه في صلواتكم وتقدموا عن نفسه القربان إذا

استطعتم".

<sup>١٠٨</sup> تقول: "لقد كافئنا الله أنا وأباكم بأولاد صالحين محبين مطيعين، يتمتعون بصيت حسن. كما لو أن الرب يقول لنا خذا ثمن أتعاكما من هذه الحياة. وهي لا

تقدر بمال الدنيا (..) إن أباكم كان يقول مرارا أنا أغنى رجل في العالم لأن الله رزقني الأولاد الصالحين. لقد كان أبوكم أبا صالحا وزوجا مخلصا". الرسالة

نفسها.

<sup>١٠٩</sup> أشكر الله على أن لكم زوجات صالحات. إن بالي مراتح لهذا الأمر (المرأة الفاضلة أين تجدها؟) لقد رأيتهما بكن يا بناتي. حافظن على أزواجكن. ليس

لأنهم أولادي. ولكن ينطبق المثل أيضا على الأزواج (الرجل الفاضل أين نجده؟) (..) لقد حرمت من البنات. ولكن أولادي كانوا يتمتعون بعاطفة البنات

وحونها. ولكن الله رزقني بنات مربيات التربية الصالحة منحدرات من أمهات صالحات فضلات عرقتهن من بناتهن". الرسالة نفسها.

بزوجاتهم<sup>١١٠</sup> ووفقا لوصيتها فإنها تحدد السبب الذي جعلها تفخم توصيفها العاطفي لأولادها، وتتخذ موقفا إيجابيا في سرد الحسنات.

نلاحظ جو الوصية الكنسي، والروحي الذي يظل بنوره أسرتها، والإيجابية الطاغية، مع إشارات واضحة إلى حبها لزوجها ورضاها عن حياتها واستقرارها العاطفي، وان هذا الاستقرار يسيطر على اتجاهات تفكيرها الذي يكشف بينات الاتصال الأمومي في خصوصيته الإنسانية. إنها تقاوم الحياة بالأدوات التي تمتلكها وبالمعرفة التي حصلتها، هي المداومة على الصلاة.<sup>١١١</sup> انه البحث الغريزي لتحقيق ذاتها، وهي العفوية اللا إرادية العلامة الأساسية للفكر للخلاق. فمن الجليل في الروح الإلهية تستمد جليل آخر داخل ذاتها البشرية، ذلك أدى إلى تكوين مهاراتها الذاتية في اتجاه التكوين الأخلاقي الذي يبشر بالخير ويتعالى عن التفاصيل. ذلك ضمن التزامها الأساسي الأمومي الذي تشكل ضمن ظروف ثقافية وتاريخية خاصة. إن تمثلها لذاتها ولأسرتها عبارة عن بناء مشترك بينها وبينهم قابل للتعزيز أو التغيير، لكن في حالتها نجد التعزيز هو الغالب.<sup>١١٢</sup>

حين بادرت ابنها بسؤال: لماذا احتفظت بهذه الرسائل؟ أجاب بركة "ذكر منها بعد عمر طويل، ماذا يبقى لي منها؟ بعض الرسائل استخدمتها في لوحات كولاج، إذ اعتبرت إن هذه الرسائل تبقى كفن. الرسائل تحيي ذاكرتي، شكلت مصدر قوة لذاتي المضغضة في الهجرة. من الذي حرسني كل هذه الأيام؟ مكاتيبها جد مشجعة، كانت تدفعني للقتال. إذا كان الواحد تعباً فإنها تريحه وتزوده بطاقة المتابعة".

## ٥- أليس فنيا:

إن الجلال الإلهي الذي تعبر عنه، سيكون مدخلها لإجلال الطبيعة كما لاحظنا في رسائلها وإجلالها الفن. مع أن لغتها بسيطة وعامية، إلا أنها تعبر عن حسها الجمالي حيال الطبيعة فيستوقفها شدة البلبل صباحا على شجرة الرمان قرب نافذتها تتغزل بجماله وبجمال الطبيعة في الشتاء والربيع، الخ. لئن خلت لغتها من البلاغة، إلا أنها تمكنت من الإفصاح عن أحاسيسها الجمالية. عن ميولها الفنية سألت ابنها، أجاب أنها "كانت تحب الرسم، تعلمته قليلا ظروف المجتمع في الأربعينات في طرابلس لم تكن مشجعة". هل ورثتم منها توجهكم الفني؟ بالتأكيد. أخي الكبير ذواقة للفنون وأخي الثاني مهندس ونحات على مستوى عالمي في أميركا. أنا مهندس أيضا وأحب الرسم والتصوير، وهي أكثر من شجعتني على دراسة الفن".

وحدة ونشئت:

إن نظرنا في مجموع الرسائل التي بين أيدينا، وان نظرنا في معارض الابن الأربعة الأولى (كولاج)، سوف نلاحظ وحدة الرسائل ونشئت الأعمال الفنية (المحتوى، التقديم، الأسلوب)، لا نهدف إلى إيجاد التشابه أو الاختلاف بينهما، إنما التبصر في كيفية تمثل الابن لأمه عبر رسائلها وتجسيدها في أعماله الفنية التي تظهر مكانتها

<sup>١١٠</sup> "وانتم يا أولادي الأربعة أطلب منكم وأرجوكم أن تحبوا نساءكم وان تحافظوا عليهن لا لأنها الزوجة فقط. بل لأنها أم أولادكم. شجعوها بقولكم دائما بأنها الزوجة المثالية التي اخترتموها من بين نساء الأرض كلها. فالتشجيع والتذكير بالحسنات لكل واحد منكم تستمر الحياة بالهناء والسعادة والحب. ذكروها بأنها ما زالت جميلة كما عرفتموها لأول مرة. ولا يشخ فيها سوى عقلها. اعني بهذه الكلمة (النضوج والحكمة) حيث ازدادت جمالا على جمال".  
<sup>١١١</sup> حين سألت ابنها ما رأيها في الوصية، خاصة أنها لا تحمل أسراراً عائلية بل تقدم الأسرة على طبق من الخير، أجاب "جميلة لكنني أحسستها مثالية جدا".

<sup>١١٢</sup> انظر بوريس سيرولنيك الذي يفصل كيف نكون محكومين بالصورة التي نصنعها لأنفسنا.

Boris Cyrulnik, Parler d'amour au bord du gouffre, Odile Jacob, Paris 2004, pp.110-112.

الواسعة، وكشف طريقة تمثله لها في تبادل الأدوار معها واستعارة لسانها وسرد حكايتها، إذ جمع عدة رسائل منها في رسالة واحدة، ووضعها في اللغتين الإنكليزية والفرنسية وأدرجها في لوحاته التي عرضها في كندا. نجد لازمة لدى كل منهما: تخلق كتابتها في رسائلها فضاء/زمنًا مميزًا تسكنه الأم، بمعزل عن العالم، يركز على العناية بالمرسل إليه كقاعدة ضرورية للتبادل. ونرى حضور الأم بقوة في لوحاته، كما لو أن الإيحاءات تصعد منها. كأن رسائلها حدث حقيقي له أصدائه في حياة الابن، وحوار لا ينقطع. تمثل الرسائل نموذج الحب الأمومي المنسجم مع هويتها، ويشبه مزج الابن الأنواع في كولاجه (الرسائل، الرسم، الصور) لعبة الغمضة التي يحاول الابن من خلالها اكتشاف نفسه. إن رسائلها في لوحاته تشكل كتابة تحت أرضية، نوع من الأسرار التي يحاول كشف تداويرها الخفية لمعرفة هويته بمرآة رسائل أمه.

إن الشحنة الانفعالية العظيمة التي تشكل حياة الأم اليومية، تنمو خلسة في جلدة الابن وفنه<sup>١١٣</sup>. بهذا الشكل تستعيد حياته الإحساس المشترك ومنطقه الخاص. إن مجموع أعمال الابن الاربعة<sup>١١٤</sup> تشبه إلى حد كبير سيرته الذاتية ويوميته التي تتشابه والرسائل في الوظيفة، فهما مرآة وركيزة للرسم الذاتي، ويبحث عن الذات يمر عبر نظرة الآخر، الأم. الرسالة نافذة على عالم الأمهات في الأمس. لقد مثلت رسائل أمه وظائف ثلاثة بالنسبة إليه: بديل عن اليوميات الحميمة وفضاء لمعرفة الذات واستقصاءها، ولكنها تغذي في الوقت نفسه، مؤلفاته الفنية بحيث أنها كشفت عن توقه الفني في التصوير والكولاج وليس الكتابة. يمكننا تصنيف مراسلة الأم على أنها تجربة أساسية موحية أيضا لمواجهة الأم الغربة والرغبة في الاجتماع العائلي، وإفراغ الشحنة العاطفية. أما أعماله فإنها موسومة بالخوف من الغربة والقلق من التشتت<sup>١١٥</sup>، تركز على مفارقة الغياب والحضور،<sup>١١٦</sup> وإيجاد معنى للوجود في فضاء لا يسيطر على معالمه وقيمه وعاداته. هكذا حول دراما الافتراق إلى تخيل، وحولت الأم الافتراق إلى فعل كتابي تراسلي محصور في إطار أمومتها.<sup>١١٧</sup>

<sup>١١٣</sup> هكذا ترجم الفنان Camille Zakharia في أعماله رسائل أمه حين عاش في كندا وعرض أعماله فيها " Mon fils cheri, nous avons mangé à midi des feuilles de vigne farcies et du "kebbé au four" avec du taboulé et des frites. Mon dieu, j'aurais tant voulu que tu sois là! (...) je jure que nous avons tout fait pour rejoindre au moins l'un d'entre vous durant l'après-midi, mais évidemment, ça n'a pas marché. Dieu maudisse ces téléphones et leurs propriétaires! Jamais nous n'avons pu réussir à te parler (...) Après le repas, nous avons fait du café turc et comme à l'habitude, ta tante a insisté pour nous prédire l'avenir en lisant dans le marc. Elle m'a annoncée que l'un d'entre vous viendrait nous rendre visite bientôt. J'espère qu'elle ne se trompe pas et que je vais tous vous voir." Ces pays qui m'habitent (2001).  
<sup>١١٤</sup> المعارض الاربعة هي:

Hanna's Diary: An Immigrant Story, Multicultural Arts Resource Centre 1541 Barrington, Suite 401, Halifax, Nova Scotia (1998). Stories From The Alley, Artemisia Gallery, 700 Northe Carpenter Street, Chicago, Illinois. (1999). Assembling Places, Dal Tech E XIBITION room, 5410 Spring Garden Road, Halifax, Nova Scotia. 1999). Ces pays qui m'habitent (The Lands Within Me), Canadian Museum of Civilisation, 100 Laurier Street, Hull, Quebec. (2001).

<sup>١١٥</sup> قال في مقابلة معه:

"Maybe the fragmentation of my identity accounts for why I always ended up working with collage" he explains. "the traveler, the outsider, displacement, fragmentation-all these are elements repeated in the works I have completed in the last few years. The common thing is identity, the search for a place to fit in."  
Confidential Bahrain, September 2003.

<sup>١١٦</sup> في الرسائل التي جمعها الابن في رسالة واحدة باللغة الفرنسية تقول الأم:

Maudite soit la guerre qui a dispersé tous mes enfants! Vous êtes tous à l'autre bout du monde. Ton père et moi passons nos soirées entre ses quatre murs, avec personne à qui parler." Ces pays qui m'habitent. (2001)  
Mon dieu, c'était le bon temps, alors! Je vous avais tous autour de moi. J'ai une photo de vous tous quand vous étiez " petits. Elle est devant moi, dans le salon. Tous les jours, je brûle de l'encens à côté pour que le Seigneur vous protège du Malheur et du mal, toi et tes frères, Sur la photo, le mari de ta tante, qu'il repose en paix, se tient derrière toi et te tient par les épaules comme ferait un père affectueux. Il avait une préférence pour toi. Tu étais le seul qu'il emmenait à la

إذا كانت الرسائل ضرورة له، فذلك لأنها تولف فضاء تضحويا/قربانا، حيث يقبل أن يبقي الكائن العزيز عليه على مسافة، لكنه يريح في وحدته في هذه المسافة سلاح الإبداع من أجل خلق بيته الخاص وبناء تاريخه الثقافي الخاص عبر ذكرياته المتشظية في أمكنته المختلفة عن موطنه الأصلي، فيدفعها جميعها في قالب موحد يرضي عيشه<sup>١١٨</sup>. أما الرسالة فإنها تشكل "طبعة" حسب العبارة التي تنتمي إلى فن التصوير، وانطباعا عن اليومي المعاش للذات، موجه إلى الابن المحبوب التي تملي فجوات ذاكرته بخطوط الحياة العائلية<sup>١١٩</sup>. يمكننا القول أن لوحاته تتقاطع والرسائل. فأين تنتهي الذكريات وأين يبدأ التخيل؟ إن وقائع الغربة والافتراق مثل أحجار مجتمعة تتحول إلى جدار والى بيوت تشهد على تاريخ إنساني لمعاش اللبنانيين عموما. لكن تبقى أعمال الابن، وان استخدمت رسائل الأم ووازنت بين جروح الهجرة وجروح الأمومة، أكثر عمومية ورسائل الأم أكثر خصوصية، مع أن الموضوع نفسه: الشوق والفقد والانتماء. إذ لا فرق بين الخاص والعام في الرسائل وفي لوحات الابن المستوحاة من رسائلها ومن طفولته. على أن الأم تركز في رسائلها على افتراض حضور الابن في النص ومحادثته وسؤاله، بينما الابن ينطلق من رسائلها نحو اكتشاف ذاته كمغترب، واكتشاف شبهه بأي مغترب آخر، وبالتالي عدم تفرده في هذه الوضعية. وكذلك تفعل الأم حين تذكر في رسائلها الألم الذي تعانيه إحدى الأمهات من جراء هجرة ابنتها بعد زواجها<sup>١٢٠</sup>.

ان استرجاع الماضي العائلي واستحضاره يقوم به الابن في أعماله الفنية. ويعبر عنه عن انتصار قيم الأمومة والرغبة في إعادة إحيائها فنيا، معيدا بذلك تشكيل هويته في أمكنته الجديدة بعيدا عن دراما الافتراق. كما لو انه يكمل مهمة كانت مرغوبة من الأم. إذا تندرج هذه المحاولة ضمن محاولة بناء الذات الخصبة، والاستئثار بهوية محررة من الحدود الجغرافية والثقافية، استنادا إلى أمومة يقينية دنيوية وروحية، وصولا إلى هوية غير قلقة. هكذا تنتظم ممارسته الفنية حول أنموذج التكوين الجديد، حيث يداوي جرح فراق الأم، ذلك كي يستعيد وجوده الذاتي، فيضع الماضي بين قوسين، وهذا شرط الانفتاح على الحاضر وعلى مجرى الحياة، فنصف إجابته بعملية التمثل الاستيعابي الخلاق. لكن تحقيق هويته الجديدة ما كان ممكنا دون الاستناد إلى مرجعية الأم كمنجز عاطفي متحقق بإبعاده الرمزية والثقافية لكي يتجاوز حدود هويته الأصلية، إذ كان عليه عبور حدود الأمومة واستيعابها للانطلاق نحو آفاق جديدة لهويته. إن وقوف أمه على حدود أمومتها ودفاعها عنها في رسائلها المتواصلة، أفضى به إلى استيعابها وتجاوزها في جمالية الانفتاح والالتقاء.

## خلاصة:

---

pêche.(...) Tout le monde sourit sur la photo, sauf toi. Tu as toujours été sérieux, même tout petit. Tu prenais toujours les choses au sérieux." Ces pays qui m'habitent 2001.

<sup>١١٨</sup> هذا ما أنجزه Camille Zakharia في معرضه: Cultivate your own garden, Daltech Atr Gallery. حيث ابتكر عالمه الخاص.

<sup>١١٩</sup> " Je n'ai pas besoin de te dire qu'il faut économiser le plus d'argent possible.(...) Dieu veuille que tu puisses acheter une parcelle de terrain ici, dans le village, pour te bâtir une maison où tu pourras t'installer avec ta famille. Que Dieu hâte le jour où nous serons réunis pour nous rejouir tous ensemble!". Ces pays qui m'habitent.(2001).

<sup>١٢٠</sup> Je plains sa mère. Elle n'a pas arrêté de pleurer pendant le mariage. C'est difficile pour elle de penser que Jumana va bientôt la quitter. Elle me rappelait dans quelle état j'étais quand ton frère a immigré en Amérique, et qu'ensuite vous êtes tous partis les uns après les autres! A la fin il ne me restait plus de larmes pour pleurer".

رغم معاناة الأم لبعد أبنائها عنها، إلا أنها لم تقع في تقديس المعاناة والتضححية بالذات، بمعنى أن أمومتها انقضت حقا ولم يبقى لها غير التكرار وتجزية الوقت! ففي ذلك حجب لفترة زمنية من حياتها، إذ ارتضت فراق أولادها لسبب جوهرى يتلخص بتدبير حياتهم، فلم تتوقف عند جرح الأمومة. لذلك لاحظنا أن خطابها لا يتعصب إلى الماضي بل يقدم حاضرا ومستقبلا كإطار حاضن لأمومتها.

كيف يمكن في هذه القراءة أن نعيد التفكير في وضع الفرد/الأم، في ذاتيتها لا في عمومية الدور الأمومي، انطلاقا من تجربة أمومة عبر الحدود؟

إن ذات الأم ليست فارغة تحتاج إلى الأعمار، لا تتسم كفرد بعدم الاكتمال والسلبية. فمعنى هوية الأمومة لم تفنقر دلالاته ولم ينحسر إلى مجرد تعبير مجازي للتشبث بالأرض والجنود<sup>١٢١</sup>، بل تنشبث بأمومتها وبقدرتها على خلقها بنفسها ضمن ظروفها المستجدة: الحرب وهجرة الأولاد. فلو استعدنا طريقة زواجها حيث أن خيارها للزوج المناسب لها لم يكن شأنا عائليا، لوجدنا أن أليس صنيع نفسها الذي لا يتناقض ومورثها الإيماني، إذ خرجت عن السياق الاجتماعي/الثقافي/الاقتصادي لزمانها، هي المولودة في الربع الأول من القرن العشرين<sup>١٢٢</sup>.

ذلك على مستوى العمل وإعالتها أسرتها، وميولها الرياضية والفنية، وتأخرها في الزواج، وطريقة اختيارها الزوج، ثم متابعتها عملها، وكتابتها الرسائل. وإذا أضفنا إلى ذلك مرونتها وتأقلمها مع ظروفها المستجدة<sup>١٢٣</sup>، فإننا لا نشعر عبر رسائلها أنها قليلة الحيلة، بل هي امرأة قوية صنعت أمومتها على مقاسها ووفق ظروفها الخاصة. لئن سايرت إلى حد ما، طلبات الزوج ومحيطه القروي، إلا أنها لم تكن امرأة مهمشة في أسرتها الأولى أو الثانية. إن التجربة من حيث هي حدث فريد توجد المعنى الأساسي للأمومة الذي لا يتحصل إلا بدلالة السياق الثقافي/الاجتماعي. غير أن كل إعادة لتشكيل السياق هو فعل معرفي، أي أن الواقع يتعلق أكثر بأفعالنا مما نفكر فيه. يشير ذلك إلى أن أليس لم تعش تحت وطأة التصنيف والترتيب في كفاءات تدبير يومياتها كأبنة وكزوجة وأم. أنها ببساطتها تتعامل مع اليومي وتديره وفق وقدراتها وظروفها. امرأة عملية لا تبدو من رسائلها ومن أقوال ابنها أنها تتبع مثالات وتحاكيها كما افترضنا في المقدمة.

إن التعميم يقتل النظر إلى التنوعات في المعيش، فكل فعل معياري ينطوي على إطلاق حكم ما، يحجب عنا دلالات التجارب والاعتراف بها. نفتضي المحاكاة التوضع في فضاء محايد لا يخضع للتجربة وللمتغيرات، بينما خوض التجارب يعني التوضع في فضاء المتغيرات. أليس من وجهة نظرنا قد نمت ورعت نوع من الفردية المتحررة التي شكلت ملاذها وجوهر مقاومتها الخاصة بها. تركت لأولادها ولزوجها حرية الانهماك بذواتهم، واتبعت سياسة حقهم في اختيار نوعية الحياة التي يرغبون. لم نجد علاقات قوة بينها وبينهم، ولم تبدو ضحية لهذه لظروف، بل امرأة عاقلة تستوعب المتغيرات وتحولها إلى مصدر ايجابي للتغيير. حارسة لشجاعة أولادها وتماسكهم، تمدهم بالطاقة التي تعينهم على متابعة حياتهم في المهجر والاستفادة منه. تقبل من جهة أخرى دلال زوجها وعدم صبره على الغربة- ربما تواطأت ضمنا معه! تتعامل بنديّة مع ذكور أسرتها ومن موقع

<sup>١٢١</sup> كلمات مثل الوطن ولبنان لا ترد في رسائلها.

<sup>١٢٢</sup> لقد درجنا على القول إن مكانة النساء الاقتصادية ضعيفة وان النساء محصورات في المجال الخاص دون العام، وأنهن يحاكين نماذج جاهزة وموروثة بدل ابتكار انماط عيش مختلفة ومتعددة، خاصة في القرن الماضي.

<sup>١٢٣</sup> العيش في القرية بدل المدينة وهجرة الأبناء.

القوة الايجابية وليس التسلط. استقبلت التغييرات في دورها كأم على طريقتها وأعدت إنتاجها بصورة مختلفة في ممارستها الاجتماعية تجاه الأولاد، فرأت في هذه التغييرات أبوابا مفتوحة على العلم والرزق والاستقرار لأولادها. لذلك ساندتهم في غربتهم فبدت أما صلبة وقوية، هذه هي بصماتها الخاصة بها. ربما ساهم في ذلك كونها تنتمي إلى أسرة غير بطركية طالما أن الأب توفي باكرا، وزوجها رغم غرقه في نرجسيته إلا أنه كان يحبها و متمسكا بها ولا يريد الافتراق عنها، فترك لها القيادة.

يبدو أن الأمومة عبر الحدود تمثل وضعا استثنائيا يؤول إلى ابتكار أساليب خاصة بها، لا سيما وان هذه الوضعية تفتقر إلى نموذج للمحاكاة آنذاك، فأسرتها لم تتعرض لهذه التجربة وأسرته زوجها لم تغادر القرية<sup>١٢٤</sup>. تتسم هويتها بالاستقرار وتتعد عن القلق، إذ يقع الانسجام بين صورتها عن نفسها وسلوكياتها. هذا التطابق بين الصورة والسلوك والذوبان في طبيعة كريمة، كشف عن هوية دنيوية لا تتناقض ودينيتها. ذلك يعاكس ما حدث مع جيل من أجيال أمهات المنتصف الثاني من القرن العشرين مع شيوع الحداثة الثقافية/الاجتماعية ونشوء التيارات السياسية اليسارية. حيث نشهد على حضور هويات دنيوية قلقة في انتماءاتها الطبقية، الثقافية، النسوية، الدينية، الطائفية، والسياسية. أما أليس فإن حياتها ابسط تتميز بمعايير واضحة وافق الانتظار واضح أيضا بالنسبة إليها. إنها تنتمي إلى نموذج واضح الحدود والمعايير. فهناك مشابهة بين المرجعي المعيش والمتخيل، بين الواقعي والمحتمل، انه انسجام الهوية.

هذا ما حضني على إعادة النظر في ما نسميه بالتقليد، إذ يقتضي التقليد نقل فترة زمنية ثقافية يمكن تعيين مضمونها من خلال عناصر مختلفة: المعتقدات، الايمانات، المعايير، العادات، المؤسسات، المعارف، حيث تكتسب جميعها أهمية أخلاقية واجتماعية ودينية. على أن أليس لم تبدو لنا تقليدية وفق هذا التعريف، إذ تعرضت في مسارها الذاتي، وكما ذكرنا، إلى تغييرات تجاوزت معها واستوعبتها، دون صراعات وأزمات نفسية، وأوجدت صيغ خاصة بها. لم تدخل في مواجهة حادة عنوانها الصراع بين التقليد والحداثة كما درجنا على فهم القضايا الثقافية/الاجتماعية. ذلك يشير إلى قصور رؤيتنا العلمية للظواهر الثقافية/الاجتماعية، التي اطرناها في هذه الازدواجية الوهمية، حيث أعاق هذا المنظور تبين نبض المعيش وتجاربه المتعددة وعمق العلاقات الاجتماعية ومساراتها المتباينة، ففرضنا بذلك تصوراتنا على الوقائع. ساهمت أليس في الحراك الاجتماعي في تحملها مسؤوليات أسرتها الأولى والثانية. ورأينا أيضا الدور الايجابي للعائلة الممتدة في التعاضد الأسري<sup>١٢٥</sup>. ربما ذلك جعل أليس رغم كونها القناة الناقلة للقيم الدنيوية والروحية لأولادها في تحول مستمر فتنفق زمنيا رغم فارق العمر بينها وبين أولادها مع تجاربهم وتنمأشى مع تطلعاتهم في الزواج والفن. نستنتج أنه لا يوجد في مسارها ما يمكن أن نطلق عليه بالتقليد الذي يلخص ليس فقط المحاكاة إنما أيضا الثبات على وضعية دون حراك. إذا كانت التجربة بناء ثقافي، فإننا نراها متغيرة مع الزمن، فهل تعلمت أليس من تجربتها أن لا تقع فريسة الضحية والتضحية بالذات الامومية، بل إسباغها بصور جديدة كعلامة على التكيف والتوافق النفسي؟ إن النزعة

<sup>١٢٤</sup> غالبية الأمهات اللبنايات يعشن اليوم، هذا النمط من الأمومة عبر الحدود.  
<sup>١٢٥</sup> ساندت أهلها وأختها ساعدتها في تربية الأولاد حتى بعد زواجها، خاصة وأنها لم تتجب.

التفاوضية الايجابية الملفتة التي تبنتها حول المستقبل، ونزعتها الدينية التي تحتفي بالأيمان وتضفي قيمة روحية على تجربة أمومتها، وشخصيتها المرنة اعطت بعدا ذاتيا يتكيف مع الموروث ويتفق مع القبول بالجديد. علينا العودة إلى الإطار الثقافي التي أنجزت التجربة في إطاره، إطار التاريخ فيه مكتوب في الحاضر، وفق سياقات اجتماعية/سياسية/اقتصادية، فليست التجربة أمرا بديها محجوبا عن سياقاته. كما أن الذات هي ذات في وضع معين يندرج في مجال استدلاي وثقافي أوسع، وليس معطى طبيعي.<sup>١٢٦</sup> علينا الحذر من التعميم الإيديولوجي الذي يطمس المختلف ويعمم التجانس والتميط. بالمقابل فإن الانتصار إلى الخطاب الثقافي يجب أن لا يحجب تجليات الذات العائشة والعارفة والقائلة والعاملة في وعبر تجاربها. فالذات منتجة للثقافة كما هي ناتج عنها، في تفاعل دينامي يتجاوز التناقضات النمطية: حداثة/تقليد، خاص/عام، داخل/خارج، دين/دنيا، ذات فردية نشطة/ ذات جماعية في عطالة. تتداخل هذه العناصر وتتشابك في حركة لولبية تشير إلى درجات وتلويحات تتطلب التظهير.

أليس تشبه شخصيات المسرح الكلاسيكي واضحة المعالم، بينما جيل الأمهات اللاحق عليها فإنه يشبه شخصيات المسرح الحديث حيث أن الشخصية مركبة من شخصيات عدة تمتاز بالالتباس.

---

<sup>١٢٦</sup> Joan Scott, "The Evidence of Experience", Critical Inquiri, 17,4, été 1991. مفاهيم عالمية، التجربة، المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠٥، صص. ٨٦-٨٧.

٢٠٠٥/١٢/٢٩

## أمهات لبنانيات في مرآة الذات

### فادية حطيط

ماذا لو تكلمت النساء؟

أعرف أن هناك من سيعترض على هذا السؤال باعتبار ان الحكي موروث نسائي. ولكن الفارق كبير بين أن تحكي المرأة وأن تتكلم. لا يكفي الحكي للخروج من الصمت. غير أن التكلم، فيما هو صياغة، يكون أكثر قدرة على إحالة الأشياء إلى معانيها. تحمل الحكايات معاني ليست دوماً من صنع رواتها. أما النساء اليوم فيردن أن يكن سيدات معنى. ان يتكلمن لا أن يحكين. أن يصغن تجربتهن صياغة عقلية، وأن يحللنها لا أن يعشنها مثلما قدمت لهن، كأمر مسلم به. والأمومة من اكثر التجارب صعوبة على الاحتواء الذهني والتحليل. من هنا ربما كثيراً ما لجأت الامهات للحكي لا للتكلم. وكانت حكاياتهن تخفي من الوقائع أكثر مما تكشف. والكثير من توترات تلك العلاقة أختفت في طي الحكاية. اليوم وبعد ان صارت النساء أكثر تعلماً، وأكثر امتلاكاً لأدوات التحليل وأكثر مشاركة في صوغ المعرفة، يبدو لنا من المناسب أن تقوم النساء بالتكلم عن أمومتهم بشكل واع ومدروس. لذلك بحثنا عن سيدات متكلمات. سيدات معنى. فاخترنا مجموعة سيدات مثقفات، استاذات جامعيات وباحثات، لقناعتنا بأن هذه الفئة المفكرة في وضعها والواعية للتغيرات الحاصلة فيه تكون الأكثر قدرة على بلورة تجربتها وصياغتها، مما يساعد على التقاط المسائل الجوهرية في التغير الذي لحق بدورهن الأمومي.

الأسئلة العامة التي حملناها للباحثات كانت الآتية: هل تغير الدور الأمومي؟ هل ان علاقتكن بأبنائكن تختلف عن علاقة امهاتكن بكن؟ هل ثمة تغيير ملحوظ في تجربة الجيلين من الأمهات؟ في اي نواح؟<sup>1</sup>

والإشكالية التي انطلق منها التفكير بالموضوع تمثلت بكون الأم اللبنانية اليوم تبدو لنا ما زالت قريبة من تجربة جيل الأمهات السابق، بالنظر الى بطء عملية التغير الاجتماعي. ما دفعنا

<sup>1</sup> اللقاء كان مع ستة أمهات ينتمين الى "تجمع الباحثات اللبنانيات" ولهن جميعاً بالغ امتناني وتقديري..

إلى افتراض عدم التمكن من رصد آلية تحول ذات منطق وثبات لدى فئة الامهات. فتوقعنا أن نجد لدى الأمهات:

- السلوك ونقيضه على درجة واحدة من الشرعية (سلطة وتراخي، احتضان وتباعد...)
- تضارب المعتقدات التي تشكل خلفية السلوك الأمومي، ما بين مصدر تراثي تقليدي ومصدر حديث يأخذ من مكتسبات العلم والغرب وحتمية الانخراط فيه.

للإجابة على هذا الافتراض أجرينا لقاء جماعياً (استغرق حوالي ساعتين ونصف) مع ستة أستاذات جامعات وكاتبات، قمن بالإجابة على الأسئلة المطروحة، وتشعب النقاش أحياناً في نواح متعددة (الأبوة مثلاً) كما أن إحدى الباحثات لم تطرح تجربتها وإنما قدمت رؤيتها للموضوع (لذلك صار عدد التجارب المعروضة خمسة). ومن جهتنا لم ننتدخّل في تغيير مجرى الكلام، كما أننا لم نحذف أيّاً من المداخلات، باعتبار أنها كلها تجيب مباشرة أو غير مباشرة على الموضوع. وتم تسجيل الأحاديث وتفرغها، ومن ثم تجميع أقوال السيدات المشاركات كل على حدة، حتى ولو ان الكلام لم يجر كله دفعه واحدة.

### تجارب امومية:

اتفقت المجتمعات على وجود تغير في الدور. ولاحظت إحدى المشاركات في اللقاء وهي محللة نفسانية "أن طرح مثل هذه الأسئلة هو بحد ذاته مؤثر على تغير وقلق. ففي السابق كانت الأمومة تشكل جزءاً من لعبة متكاملة، لعبة أسرية مترابطة كلها مع بعضها البعض. اليوم هنالك وحدات منفصلة لديها الحق بالكلام والحق بالتعبير والحق بطرح أوجه التغير. ومجرد ملاحظة البرامج الاعلامية وهيمنة قضايا الزواج والطفولة والأبوة والأمومة، وميل الناس لمشاهدتها، يعني أنها تشغل الاهتمام. هذا أحد مستويات القلق الجاري الكلام عنه ومحاولة التعاطي العقلي معه. فهذه المسألة كانت تجري مع اهلنا وامهاتنا كتحصيل حاصل. ولم تعد كذلك اليوم. إنها تستدعي التوقف والتفكير والنقاش. من هنا تتزايد الاسئلة الكبيرة: هل الأمومة غريزة؟ هل هي دور؟ هل تنقل الأم الأمومة لإبنتها؟ وفي أي سياق؟ هذه أسئلة كبيرة وكثيرة والنقاشات جارية بشأنها. وأنا ارى أن هذه النقاشات هي أحد أهم مستويات الوعي الثقافي المرافق حالياً للمأسسة الاجتماعية للموضوع. إن التغير يبرز على مستوى الوعي والمأسسة والميديا، وثمة الكثير مما يحتاج إلى النقاش، وهو مترافق ضمناً مع خلخلة البنى الاجتماعية الموجودة".

## ١- مروحة التغيير:

إن استعراض تجارب الأمهات المشاركات في اللقاء يجعلنا نتلمس بقوة تغييراً في السلوك الأمومي، غير أن هذا التغيير مثلما سنرى راوح بين تغيير جذري (حالة واحدة) وبين تغيير بسيط (حالة واحدة) وبين تغيير متفاوت في بعض المستويات (ثلاث حالات).

### أ- النموذج الأول: الارتداد الى الأمومة

صاحبة هذا النموذج فنانة تشكيلية واستاذة جامعية وباحثة مشاركة في قضايا مجتمعها، على صعيد المشاركة في الحياة السياسية أو التحرك النسائي. وهي تروي:

أنا أمي من جيل ومن بيئة اجتماعية ضمت العديد من النساء اللواتي اعتبرن أن تحررهن الذاتي لا يتوافق مع امومتهم، فرفضنها. أمي لم تقم بتربيتنا نحن الابناء الأربعة، ومع أنني لكوني أصغر اخوتي قد نلت اهتماماً أكبر نسبياً، ولكن الشيء المؤكد هو أن امي أرادت أن لا تكون مثل امها. جدتي كانت أمّاً بكل معنى الكلمة وفي نفس الوقت كانت سيدة أعمال، ترمّلت باكراً في الأربعين واستلمت مسؤولية إدارة الرزق وقامت ببناء عمارة واضطلعت بتربية ابنتيها الجميلتين والمرفهتين. لم يكن من تعارض لدى جدتي بين أن تكون أمّاً وأن تكون امرأة أعمال. أما أمي وقد تربت برفاهية ودلال ونعمت بجمال وذكاء كبيرين، ونالت نصيباً من التعليم كان آنذاك كبيراً بالمقارنة مع جيلها (المرحلة الثانوية)، فكانت تربية الأولاد بالنسبة إليها من مسؤولية المربيات، كذلك لم يكن تدبير المنزل والطبخ في وارد اعتبارها. جدتي حملت، إلى جانب أبي (الذي كان يكبر أمي بحوالي ٢٤ سنة)، مسؤولية تربيتنا، وبالنسبة إليها كان هناك الله والاولاد.

في عمر مبكر وعيت وبوضوح أن موديل وطريقة أمي كانا خطأين، وأن جدتي كانت النموذج الصح. جدتي هي الشخص الحقيقي. لذلك عندما أنجبت ابني قررت أنني أم من دون أي شك. ورفضت أن يناديني ابني (الذي امضيت وإياه سنوات طفولته في أميركا) باسمي الشخصي كما يفعل رفاقه، قلت له نادني "ماما" أنا "امك". بالنسبة إلي لم يكن هناك أي تناقض بين أن أكون أمّاً وإن أحقق ذاتي. لقد مارست أمومتي بشغف (avec passion) ، استمتعت وتسليت كثيراً في علاقتي بإبني، لم تكن أمومتي واجب (devoir) على الرغم من صعوبة أن نكون لوحدا في أميركا، شعرت بلذة كاملة في كوني أمّاً أربي. لم أشعر بأي تناقض بين تحقيق ذاتي، اي أن أنتج واشتغل، وأن أكون في الوقت نفسه أمّاً.

لم يكن من صلة بين أمومتي وبين أمومة والدتي، لذلك لا أستطيع أن أقول ان هنالك فارقاً بيننا، الفارق هو بيني وبين جدتي لأنها هي كانت الموديل التربوي الذي اتبعته. أما الفارق بيني وبين

جدتي فتمثل في النظرة إلى الأولاد، لقد كنا بالنسبة إليها (وبالنسبة إلى أبي أيضاً) امتداداً لهم (extention) أما بالنسبة إلي فإبني لم يكن امتداداً لي. إنه شخص قائم بذاته (individu). ربما لأن ولادتي له كانت قيصرية، فتحت عيني فوجدت وكأن أحداً قد وضعه في حضني، كما لو أنه أرسل لي، شخصاً تاماً يمتلك حكمة (sagesse). هكذا شعرت وهو في الواقع لديه حكمة. أنا احترمت ابني منذ صغره، ولكنني أيضاً حافظت على سلطة معينة. كلما ناقشنا أمراً ما أقول له اعطني حجة لأوافق على ما تريد، فإذا أفنعتني حجتك وافقت وإلا فأنا التي أقرر، طالما لا زلت قاصراً .

إشارات من التجربة:

الفكرة الأولى التي ترد على الذهن من جزاء عرض هذا النموذج هي أن فكرة التحرر النسائي والتحقق الذاتي ليست جديدة في المجتمع اللبناني، خصوصاً في الطبقات العليا منه. فإذا تذكرنا ان الأم المشاركة في اللقاء هي من مواليد أواخر الخمسينات، وأنها أصغر أخواتها، فهذا يعني أن أمها اختبرت فكرة التحرر في أربعينات القرن الماضي ما يعني أن التجربة اللبنانية في التحرر النسائي لها من التاريخ ما ينبغي أن يجعلها ناضجة ومستقرة. غير أن واقع الحال لا يشير إلى ذلك، فبعض مظاهر هذه التجربة تراجع إلى الخلف بدلاً من أن يتقدم، والبعض الآخر تم محوه ربما بسبب فشله. وقد تكون نخبوية هذه التجربة الطبقية، وليس انطلاقها من معاناة نسوية هو السبب في انحصارها وعدم تمددها. فلم يتحول عدم الانجاب إلى ظاهرة، لا بل ينذر أن نسمع ان امرأة قررت عدم الإنجاب من أجل إكمال مسار تحققها الذاتي (والشائع في هذه الحالة هو أن تقلل من عدد الأطفال) كما إن إرضاع الأطفال وتكريس الوقت لهم قبل دخولهم إلى المدرسة (حتى ولو ضحّت المرأة بمسارها المهني من جزاء ذلك) هي أيضاً من الأمور التي ما زالت تلقى الكثير من التبجيل. الفكرة الثانية التي يمكن استخلاصها هي صعوبة (أو استحالة؟) تجاوز دور الأمومة، لأنه يمثل حاجة نفسية ملحة لدى الأبناء . البنات ترفض نموذج الأم الراضية وتلعب بالمقابل دور الأم الشديدة الالتزام بالأمومة، وتشدّد على عدم إعاقة الأمومة لتحقيق الذات وعلى جانب المتعة في العلاقة بالإبن.

### ب- النموذج الثاني: الأمومة بمواجهة القلق

تجربة واحدة من أصل التجارب المعروضة ألحت على احتفاظها بالنموذج التقليدي الذي قدمته لها أمها. وهي صارت منذ وقت قريب جدة. وهي أيضاً استاذة جامعية وباحثة، تروي:

أنا اليوم وسط ٣ أجيال من الأمهات، بين امي وابنتي. أقارن بين أمومي وأمومة كل من أمي ومن ابنتي. لقد تحملت مسؤولية ثلاث بنات في غياب زوجي (الذي يعمل في الخارج). وكنت كلما تعاملت مع بناتي يحضر في ذهني نموذج أمي. أشعر بأن أمي كانت ديمقراطية معي أكثر مما كنته مع بناتي. لم يكن أهلي يميزون بين الصبيان والبنات. وأمي كانت لا تعرف الكثير من أموري، لذلك لم تكن تخاف. أما أنا فعندي خوف رهيب. الموروث حاضر بقوة في ذهني. تشكو بناتي أنني أتكلم عن حقوق المرأة ومعاناتها ولكنني أتصرف بغير ذلك. دائماً يخطر في بالي أنني إذا أردت أن أكتب شيئاً عن المرأة تأتي على ذهني فكرة "المرأة خزان الموروث"، تستيقظ لدي كثيراً هذه العبارة، كيف أعيد إنتاج هذا المفهوم؟ كيف أستطيع أن أطور هذه العلاقة مع بناتي؟ هناك جوانب كثيرة في هذه المسألة تخيفني. ربما لأنني قمت بتربيتهم بمفردتي. كوني منتجة، وأرثي بناتي بمفردتي، خلق لدي الرغبة بيني وبين نفسي أن أريهن على أحسن وجه ممكن. أريد ان أثبت حضورتي، في غياب أية حصانة. عانيت في لحظات كثيرة. تسألني ابنتي أسئلة ولم أكن أستطيع أن أعلن أنها قادرة على التصرف بطريقة معينة. أنا دائماً أسعى إلى الاتقان في عملي. حينما يكون علي أن أشغل، أشغل في المساء، أكتب في الليل. لا أطلب مساعدة من أحد. أريد أن أكون ناجحة وأن لا أكون فاشلة في كوني أما ومنتجة في آن. في ما يتعلق بالحوار مع بناتي، أرى المسألة شديدة الصعوبة، أعيش صراعاً كبيراً. الموروث يحركني، مع أن بناتي قطعن شوطاً كبيراً في التقدم عني. أنا أمومي كانت إلى حد ما عشوائية، لم تكن بنتيجة قرار واع. في حين ان ابنتي بعد أن تزوجت وحملت عبرت عن نفسها بشكل مختلف، خططت لانجابها وتحضرت له جيداً. ابنتي في حالة مستقرة عاطفياً. أنا كنت متقنة بأمومي، أريد أن أكون متممة كل واجباتي. أما هي فتعاملت مع أمومتها بحب أكثر من كونها واجباً. فهل ابنتي أكثر تطوراً مني؟ هل هي منسجمة مع طفلها أكثر مني؟ تتهمني بناتي بأنني في نواح كثيرة أكون أشبه امي.

أريد أن أتكلم عن أمر آخر عندما تكبر البنات ويتركن البيت. أنا دفعة واحدة كبرت بناتي وتركن البيت. ابنتي تزوجت والاثنتان تدرسان في الخارج. فجأة شعرت بنفسني أنني غير مؤهلة. كنت مسؤولة ومرجعاً مباشراً. علاقتي بابنتي الكبيرة كانت مضطربة، كنت صغيرة حين أنجبته، أما مع ابنتي الأخرين فكنت أكثر نضوجاً. شعرت معهما أنني أم بشكل عميق، واليوم وهما بعيدتان عني أشعر بأن مساحتي تضيق. أنا أتساءل ما هي الأمومة؟ هل الأمومة هي مسؤولية طبخ وإشراف وغسيل أم هي مسؤولية معنوية؟ حتى الطبخ ما عدت أقوم به. تخبرني بناتي بما يقمن به، ولكنهما تخبراني ذلك بعد أن تعيشان التجربة وليس قبل ذلك. تعيشان أشياء كثيرة دون أن أعرف

بها. أشعر بالقهر من جراء ذلك. ربما أنا أنانية، ربما أنا كنت قد رسمت لنفسي أن أبقى أما كل الحياة.

إشارات من التجربة:

غياب الزوج لعب اثراً كبيراً في التمسك بالتقليد. فالمرأة التي تربي أولادها، وخصوصاً البنات منهم، تشعر بأنها تتحمل مسؤولية كبيرة وأنها عرضة للحساب من قبل الزوج وأهله ومن قبل المجتمع عموماً. إن تربيتهن لأطفالها تصبح مقيدة بهذه النظرة الخائفة وتتحكم فيها الرغبة بالالتقان. وفي وضع الأم المشاركة في عينتنا نلاحظ أنها حين احتاجت إلى مرجعية في تربية بناتها وجدتها في النموذج الذي تعرفه أي نموذج امها. هذا يعني أن القيام بالتغيير يحتاج إلى الشعور بالثقة، والثقة لا تأتي بغير سند، والسند يأتي من مرجعية معينة. والملاحظ أن الخوف يرد كثيراً في هذه الرواية، الخوف من الخطأ (الرغبة بالالتقان) والخوف من المجتمع (الرغبة بأن تربي على أكمل وجه).

بالمقابل إن التأكيد على مرجعية الموروث ليس أمراً هيناً في مجتمع أخذ بالتغيير (ومن مؤشرات هذا التغيير تعليم الأم وعملها واستقلاليتهن في إدارة بيتهن)، بل يمثل بذاته إشكالية، تظهر في اتهام البنات للأم بكونها تشبه امها، أي أنها تخالف ما كن يتوقعنه منها. ويشعر المتأمل في هذه الحالة أن هناك صراعاً ضمنياً تعيشه الأم بين أن تكون عصرية وبين أن تكون محافظة، لذلك يتحول الأمر إلى نوع من القلق حسمته في الظاهر تمسكاً بالموروث، ولكنها في الضمني عملت على تربية بنات مستقلات وناجحات وساعات إلى تجاوز نموذجها نفسه.

### ج- النموذج الثالث: قلق مراجعة

نستعرض تحت هذا النموذج ثلاث تجارب هن أيضاً أستاذات جامعيات وباحثات

ومتفاعلات مع قضايا مجتمعهن كتابة وممارسة.

هؤلاء الامهات عبرن عن تغير الدور، ولكن ليس على قاعدة الرفض أو القبول وإنما على قاعدة المراجعة. إنهن لم يمارسن أمومتهم مثل أمهاتهن، ولكن التغير الذي طال أمومتهم كان نتيجة تغير اجتماعي عام، أدى بهن إلى مراجعة نموذج أمهاتهن أكثر منه موقف رافض للنموذج نفسه من الناحية الشخصية أو الفردية.

التجربة الأولى: اعتقد أنني أربي أولادي بطريقة مختلفة عن تربية أمي. أمي لم تكن ديكتاتورية ولكن النتيجة الخاصة بها أولاد أقل جدلاً، أقل مباحكة. أولادي يميلون لمناقشة كل شيء كيف ولماذا. مهمتنا نحن الأهل في جيلنا أصعب. لا نستطيع القيام بأي شيء من دون تبرير ذلك ديمقراطياً. يعتقد الناس أن التربية الديمقراطية سهلة ولكني أجدها أصعب بكثير. أمي لم تكن تفسر

الأسباب، كان عندها قواعد وعلينا أن نمشي عليها بدون أن نعرف كيف تيررها. بينما نحن لا نستطيع تبني أي قاعدة إلا بعد أن نيررها ونفذلها. الآن النتيجة أن لدي صعوبة في كيفية انهاء النقاش مع اولادي. مع قناعتتي بأنهم في نهاية المطاف يتبعون ولكن بشكل ضمنى ما أراه مناسباً. الأولاد اليوم أكثر صعوبة، طلباتهم أصعب من طلباتنا في السابق. إنهم يريدون منى ان أكون أماً وان أكون صديقة في الوقت نفسه. أعتقد اننا نحن ايضاً نلجأ إلى الطريقة التقليدية عندما نكون غاضبين، نظهر عقليتنا البدائية. أولادنا يتصرفون بطريقة مغايرة عن طريقنا. مثلاً عندما تجلب لي أمي شيئاً ما ولا أكون أريده آخذه منها ثم أرميه في الخفاء. أولادي لا يتصرفون هكذا، لا يقبلون شيئاً لا يريدونه. أشعر أن في الامر احتراماً لي أكبر، يعاملونني الند للند.

أنا أطالب اولادي بالمساعدة ولكنهم يرفضون، ويقولون لي انظري إلى رفاقنا، وكيف يتصرف أهلهم معهم، انت استثناء، أما امهات رفاقنا فيأتينهم بالأكل في غرفهم.

اولادنا يعرفون أنفسهم بطريقة أفضل اليوم. الأدوار أكثر وضوحاً. نحن جيل جديد وعشنا فترة مخاض. التغيير بيننا وبين أمهاتنا كان جذرياً. نحن وأولادنا من جيل ثقافى واحد.

التجربة الثانية: أنا أهلي كانوا ديمقراطيين ومتعلمين ومتقنين، لم يكن من مشكلة معهم. المشكلة هي في الاطار العام، في المجتمع الخارجي، التقدم السريع الذي أدى إلى تزايد الفردانية. المجتمع صار فردانياً إلى حد كبير وبشكل خاطئ. يجب أن يكون هناك فردانية ولكن ليس أنانية. أخلاق الحرب تركت أثرها، ليس فقط على الجيل الذي عاشها وإنما الجيل التالي الذي عاش عواقبها، كالفساد مثلاً. وبغض النظر عن المستوى الفكري أو العائلي، هناك تغير حاصل كبير. مثلاً نحن حين كان يدفع لنا أهلنا القسط المدرسي كنا نشكرهم، وكنا نشعر مع أهلنا، ولكن هذا الجيل لا يشعر بأهله. الجيل السابق كانت لديه إيديولوجية.

جيل اليوم أكثر طفولية. في مدرسة اولادي قرروا زيادة عمر دخول الأطفال إلى المدرسة. لاحظوا أن الأولاد اليوم طفوليين أكثر مما يلزم. وربما جيلنا نحن هو السبب. إنه جيل أكثر ديمقراطية وقل صدامية، ومتنازل عن سلطته، مما أثر سلبي على الأبناء بحيث صاروا أكثر اتكالية. في السابق كان الرجال يهاجرون من عمر ١٣ سنة للعمل في الخارج. أما اليوم فماذا نجد؟ ربما الأولاد أكثر تطوراً من نواح معينة، ولكن بالاجمال هم أكثر اتكالية. إنها الحرب، علينا أن لا ننسى. نمط تربيته تأثر بالحرب، الأولاد كانوا محبوسين، وصار ميل الأهل للاحتضان أكبر.

والمرأة اليوم ما زالت تلعب دوراً موروثاً إلى حد كبير. والدليل أن الأدوار الجديدة تتعبها ولو أن هذه الأدوار تطورت فعليا لما كانت تتعب. كل الأدوار التقليدية مازالت تقوم بها، تعلمت السواقة لتوصل أولادها، تعلمت من أجل أن تعلم اولادها... إنها سوبر امرأة.

ثم إذا دخلت في عمق الدور الأمومي ستجدين أن الأم هي التي تمسك بأعباء التربية بشكل حاسم. للمثال اجتماعات الأهل في المدرسة، من يحضرها؟ الامهات بشكل كبير، مع أننا بدأنا نلاحظ مؤخراً وجود بعض الاباء.

ولكني اريد أن أشير إلى أن مجتمعنا في جانبه الأسري ما زال أمومياً بشكل كبير، وأن مجتمع الحريم ما زال موجوداً. مثال ذهبت مرة إلى حمام للنساء ووجدت صبيان أعمارهم حوالي التاسعة مع أمهاتهم. وحتى بالمآتم تأتي الأم وهي تجر أبناءها الصبيان معها. إنها عادة مضرّة. المجتمع الأمومي مضر. تعلق الصبيان بأمهاتهم ما زال كبيراً.

هناك فارق بيننا وبين أمهاتنا وهو فارق ايديولوجي يتمثل بالالتزام بقضايا المجتمع، وأن لدينا دوراً من خارج امومتنا.

التجربة الثالثة: المسألة الأساسية بالنسبة إلي هي أن أمومة أمي بدت مؤكدة كل الوقت. لم يكن لديها همّ البرهنة عليها. لم تكن قلقة. الأمومة بالنسبة إليها كانت بديهية for granted، ليس لديها حولها اي تساؤل. أما أنا فبالعكس، أحسست في كل مرحلة من مراحل حياتي أن عليّ أن أثبت شيئاً. في البداية كان عليّ أن أثبت أنني لست مثل أمي. هي كانت قمعية، وتحاسبنا بشكل فظيع. كما شعرت بأنها خاننتي حين جرّت أخي الذي كان قريباً كثيراً مني لكي يسألني عن أخرج معه، فأخبرها ونلت صفة منها. ثم بعد أن أنجبت ولديّ وذهبت إلى فرنسا لإكمال دراستي كان عليّ أن أثبت أن بوسعي أن أكون أماً وأباً في آن. لقد كان قراري أن أكون معهم لوحدي، وأعرف حاجتهم إلى أب، فكان عليّ ان أثبت أنني كفوء في هذه المهمة.

لم أكن أريد أن أشعر بالذنب تجاههم. كل الوقت أريد أن أثبت أنني ام جيدة. إنه دور متعب. أمي عاشت دورها براحة. مثلاً عندما تعرفت ابنتي إلى شاب وصارت تخرج معه، كان عليّ أن أثبت أنني صادقة وأنني أطبق ما أقوله وأنني ديمقراطية وأريد الحرية. شعرت بالتحدي. لم أكن أعبر عن ذلك بالكلام، ولكني كنت أعيش في داخلي قلقاً كبيراً، كنت أريد أن يتطابق سلوكي مع ما أفكر به، وأريد أن أتجاوز ما أراه في المجتمع. عندما قررت ابنتي الزواج من شخص يعيش خارج البلد، تساءلت لماذا اتخذت مثل هذا القرار؟ هل هي تهرب مني؟ لماذا تهرب مني ما دمت أماً جيدة؟ ثم حدث لي تحد آخر، كيف أتعامل مع صهري؟ أمي كانت تتصرف مع أصهرتها بشيء من

الراحة لأن هنالك فارقاً كبيراً في العمر. بالنسبة إلي الأمر كان مختلفاً، فالعمر متقارب، وسؤالي هو كيف أتعاطى مع شخص جديد في الأسرة، لن أستطيع أن ألعب معه دور الأم، فأحسست بشيء من الحرج، كيف أكون؟ مساري دائماً كان أن أثبت نفسي. حتى عندما أصبحت جدة كان عليّ أن أثبت أنني وإن كنت باحثة وأستاذة ومتعددة الاهتمامات، إلا أنه بإمكانني أن أكون جدة أيضاً. ولكنني واجهت مشكلة وهي أنه لا يسعني أن أكون حاضرة بنفس القدر الذي كانت أمي فيه. عندما أنجبت ابني بقيت أمي معي لمدة شهر، أما أنا فعندما ابنتي أنجبت لم أستطع أن أقوم بذلك، وتساءلت لماذا لا يكون هناك إجازة للجدة؟ إجازة أمومة للجدة. أنا أشتغل فماذا أفعل؟ النساء يعملن والمجتمع يستفيد من أجرهن، ولكنه لا يهيء الظروف الجيدة للعمل. إذا أردت أن أختصر الفارق بيني وبين أمي أرى أنه يتمثل في أننا أكثر قلقاً.

وهناك أمر آخر هو مدى متابعة الأولاد. أمهاتنا لم يكن يتابعن أبناءهن طوال مراحل حياتهم. أنا بعد أن تخطيت الثامنة عشرة رحلت أدبّر شؤوني بنفسي. بينما أنا أشعر بالمسؤولية تجاه ابنتي إلى اليوم. هناك كثير من الأمور أمي لم تكن تعرفها عن حياتي، وهي لم يكن لها رأي بزواجي أو بعلمي. ابنتي ومع أنها متزوجة وتعيش في أميركا فإنني أعرف كل تفاصيل حياتها. أحمل هموم اولادي. أنا لا أدعي أنني أعرف كل شيء، ولا أتدخل في حياتهم، ولكنني أريد ان يشعروا بأنني سند، بوسعهم أن يجدونني حينما يحتاجون. أنا تعلمت أن أقوم بذلك. ليس من الضروري أن أعرف كل اسرارهم، إذا أرادوا أن يخبروني فأنا حاضرة لذلك وإذا لم يريدوا فذلك شأنهم. إنها قصة مسؤولية. إحساسي بالمسؤولية تجاه أولادي ما زال حاضراً بقوة.

أمر آخر عشته مع أولادي وهو أنهم عندما يكبرون ويتزوجون تلاحظين أن مطالبهم أحياناً تكون تقليدية. ومع أننا لم نعش معهم بشكل تقليدي، ولم نقدم لهم نموذجاً تقليدياً، وهم يعبرون عن إعجابهم باختلافنا وسعادتهم بنا، ولكنني أشعر بأنه في ما يتعلق بالأشياء التي تمس نرجسية الأولاد، فإنهم يصبحون تقليديين في مطالبهم، فمثلاً أكون أحياناً متوزعة في انشغالاتي، ولكن ابنتي تتطلب مني تفرغاً كاملاً لها. إنهم سعيون بنموذجنا ولكنهم في الوقت نفسه يريدوننا تقليديين. يريدوننا مودرن وتقليديين في الوقت نفسه. وبالنسبة إليهم يجب ان تكون الأولوية لهم. إنه موقف أناني. المشكلة برأبي هي أن حدود الأمومة لم تعد واضحة. جيلنا تداخلت عنده الأمور ببعضها البعض. دور الأم يتغير. نحن نجرّب ولكن نجد أنفسنا نرتطم بحدود فنغير في سلوكنا. إشارات من التجارب:

تمثل هذه التجارب تغيير السلوك الأمومي ولكن من دون القطع مع النموذج الأمومي التقليدي. لم ترفض أية واحدة من هؤلاء نموذج أمها، لا بل عبرت جميعهن عن نوع من الاعجاب المضمربها (أمي لم تكن ديكتاتورية، أمي كانت مرتاحة في علاقتها مع اسرتها، أهلي متعلمين ومتقنين). كذلك تشترك هذه التجارب بنوع من الشعور بعدم الرضى (صعوبة التربية، عدم القدرة على القيام بالدور مثلما ينبغي...)، كما تشترك بمساحة دور أوسع (متابعة مستمرة لشؤون الأولاد، تشكيل سند...).

يحمل كلام أمهات هذا النموذج الكثير من الدلالات. ولو حاولنا استخلاص الأفكار المفاتيح في رواياتهن لوجدنا أنها تدرج ضمن سياق حدائوي واضح المعالم. هذه الأفكار هي: تربية أكثر ديمقراطية، وضع القواعد وفذلكتها، أمأ وصديقة في آن واحد، الندية مع الأولاد، جيل ثقافي واحد، تزايد الفردانية، أمهات يحملن ايديولوجية، التنازل عن السلطة، أثر الموروث، التزام بقضايا المجتمع، الشعور بالذنب، إثبات الذات، تعدد الاهتمامات، قلق. مسؤولية، تجريب. من الصعب تصور مثل هذا الخطاب في بيئة تقليدية او محافظة. إن محور الخطاب الناتج عن التجربة الأمومية الجديدة يتمحور حول السعي لتجربة فردية خاصة. ولأن هذه التجربة تفتش عن خصوصيتها، نلاحظ تعبيرات مثل التجريب ووضع القواعد وتبريراتها وتحمل المسؤولية، غير ان هذا السعي يصطدم بالصعوبة والمشقة ( تجربتنا اكثر صعوبة من تجربة أمهاتها) والقلق والشعور بالذنب، خصوصاً وأن الموروث ما زال حاضراً بقوة. أما التمثل الأقوى لهذا التغيير المفاهيمي فيظهر في تشوش الأدوار الذي تعيشه أمهات اليوم من حيث خرق حاجز الأجيال ( يتصرف اولادي معي كند للند، انا ام وصديقة في آن، نحن من جيل ثقافي واحد). فالأمهات لا يحصرن أنفسهن ضمن دورهن الأمومي (تعدد الاهتمامات) أو الاسري فقط ( التزام بقضايا المجتمع العامة) وبالتالي فإن توظيفهن في هذا الدور يتضاءل عملياً ( التنازل عن السلطة) ولكنه بالمقابل يتعمق مبدئياً لصالح مزيد من التفاعل الفكري أو المعنوي (لعب دور الأم والأب معاً). وبالطبع فإن كل ذلك يجري في مناخ من الديمقراطية وقيم الفردانية الآخذة في الصعود.

هذه بالإجمال تعبيرات التغيير التي يمكن استخلاصها من الأدوار الأمومية الجديدة. ولكن ثمة مسألة أساسية طرحت في اللقاء واستحوذت على جزء كبير منه بشكل تلقائي وعفوي. إنها مسألة الأبوة. وكأن النساء المجتمعات أردن القول بأنه لا يمكن التكلم عن الأمومة بمعزل عن وجهها الآخر اي الأبوة.

## ٢ - تغيير الأبوة:

تفتح المحللة النفسانية المشاركة في اللقاء الباب لنقاش واسع عندما تقول: "إن القلق المتعلق بالأمومة ربطاً بالتغير الاجتماعي هو قلق كبير مع أنه لا يجري التعبير عن ذلك كثيراً. ومجرد التكلم عن الأمومة يطرح بحركة واحدة موضوع الأبوة. فالرجال في وضعية تغير اجتماعي لا يبقون جامدين في علاقتهم بأبوتهم. هنا يوجد خطر يتمثل في أن المرأة العاملة والمتقفة والواعية والقادرة على الانجاب لن تكون بحاجة سوى إلى مولد (geniteur). الآخر لا يعود موجوداً. إن الحكي عن الأنوثة والأمومة والمرأة بهذا القدر يشير إلى أن هناك إستعادة للمرأة/ الأم الأسطورة (عشتار وإنانة). يجب أن يبقى الآخر موجوداً. وعندما نتكلم عن الأمومة علينا أن نتكلم عن الأبوة وعن الأولاد، لأنه من خارج هذا المثلث لا يمكن أن تستوي أمومتنا، بل نصبح كائنات مطلقة القدرة".

أثار هذا الكلام حماسة جميع المشاركات للتكلم عن الأبوة، وبدا كأن الأمر قد عبر عندهن عن مخاض وتجربة. فنقول صاحبة الرواية الأولى: أنا دخلت في مثل هذه التجربة لمدة سنة تقريباً عندما كنت وابني نعيش في اميركا بمفردنا، وهو كان ما زال صغيراً جداً وعلاقته بي كانت قوية جداً. ولقد تعرضت لخضات متعددة في هذه السنة حتى فهمت أن القدرة الكلية toute puissance ثمنها غال علينا نحن الاثنين، فاستدرت ١٨٠ درجة وأخذت أدرج مساحة للأب في الخطاب discours بيننا ، وبدلاً من أن نكون أنا وإياه فقط صار هناك أنا وهو وأبوه وجدته وجده، مع أنهم ليسوا حاضرين جسدياً، ولكنني ربيته كما لو كأنه مع أبيه، ماذا يقول والده، ماذا يقول جده، أي أننا لسنا لوحدها، وهذا أدى إلى فرق شاسع.

مشاركة أخرى في الجلسة روت كيف أن زوجين صديقين لها ولزوجها مرًا بمحنة ولجأ إليهما، وعندما أخذوا يسمعان كلام كل واحد بمفرده تبين لهما أن المشكلة الأساسية تكمن في أن المرأة كانت تمعن في تكسير صورة الأب لدرجة أن الأولاد ما عادوا يتمسكون بأبيهم. ونقول بأنها أنتبهت إلى هذه النقطة وغيرت في طريقة تعاملها في البيت من خلال إبراز صورة الأب.

وتستذكر مشاركة أخرى كيف أنها في طفولتها كانت أمها وهي المسؤولة عن شؤون ابنائها بالكامل تنبه الأولاد عندما يقومون بخطأ أن والدهم سوف يعاقبهم مع أنه في الواقع لم يكن يعاقبهم، أي أنها كانت تحضره، كانت تريده أن يكون أباً. وتعلق إحدى المشاركات بأن الأب الشرقي كان دوماً على هذه الحال، إنه موجود رمزياً، ولكنه في الواقع لا يدخل في تفاصيل تربية الأولاد.

ولكن هل أن الأب ما زال موجوداً على الصعيد الرمزي؟ وبأية صورة؟ تقول إحدى المشاركات "إن الضامن الوحيد لأنوثة البنات هو الأب، بشرط أن يكون مقيماً على نحو جيد في كلام

الأم. على الأم أن تسميه، حتى يمكن للأبناء أن يقيموا تماهياتهم مع صورته. في السابق كانت الأمهات تقمن بمثل هذا الدور بشكل حدسي، كانت الأشياء تتم بسرية، بمعرفة حدسية لمعنى الأنوثة والذكورة. اليوم هناك خلخلة في معنى الأنوثة والأمومة، تعود إلى اضطراب موقع الأبوة. المرأة اليوم تريد أن تخرج من الاطار الرمزي للأب، قيمة الأب صارت أقل. وكل ذلك له علاقة بلعبة الديمقراطية التي طالت اليوم البنية العائلية بعد أن كانت هذه الأخيرة بالنسبة للخطاب العربي شيئاً مقدساً ونهائياً ولا يجب المس به. ونقاشنا الآن حول معنى الأمومة والأبوة يشير إلى اختراق هذه الحدود. تتغير الأدوار التقليدية اليوم، ليس في العالم العربي وإنما في العالم أيضاً. هناك احصاءات تشير إلى أن هناك نسبة كبيرة في أوروبا من الرجال العاجزين. الرجل يحتاج إلى مساعدة من أجل تحقيق رجولته، يحتاج إلى من يسميه رجلاً. وفي العالم العربي مشكلة الرجل كبيرة بسبب تغير الادوار وبروز "المرأة القوية". ولا ننس كذلك أننا في بلدان ذات أنظمة استبدادية، وهو ما ينعكس ضعفاً في صورة الرجل عن نفسه وفي مكانته".

### ٣ - مفاتيح التغيير:

أبرزت النساء المشاركات في اللقاء عن تغير تجربتهن. أما مفاتيح هذا التغير كما ظهرت في أحاديث المشاركات فهي:

- الديمقراطية:

ترددت مقولة تجربة الديمقراطية على لسان أكثر من مشاركة. وكأنهن بذلك يردن أن يقلن أن الأمومة هي وظيفة تجري في حقل سياسي/ اجتماعي/ إيديولوجي وليست منعزلة. والديمقراطية كمسار سياسي تتعكس على مجمل مؤسسات المجتمع، والأسرة من ضمنها. لذلك فإن الأهل يجدون أنفسهم مجبرين على الخضوع لمنطق عدم فرض السيطرة، مما يخلق التباساً في الممارسة الأسرية ( النتيجة أني لا أعرف كيف أنهي نقاشاً مع اولادي).

ولكن يبدو أن الديمقراطية هي نزوع معشش في أذهان المواطنين المثقفين أكثر مما هي واقع ملموس. إذ لا تتأخر الأمهات المشاركات عن اتهام الأنظمة العربية بالاستبدادية وبأنها تؤدي إلى زعزعة البنى النفسية، خصوصاً الذكورية منها، لجهة توليد شعور بالعجز لدى الآباء. ويبدو ان تجربة الديمقراطية في لبنان ضمن الحدود التي تجري فيها، ومهما كان النقاش حول تطورها ورسوخها، استطاعت أن تؤسس لتغير في السلوك الاجتماعي واضح وجلي من خلال مداخلات السيدات المشاركات.

- الفردانية واثبات الذات:

إن خطاب النساء المشاركات ينم عن ذوات فردية متقدمة في التجربة وفي الوعي ( نحن جيل جديد وعشنا فترة مخاض. التغيير بيننا وبين أمهاتنا كان جذرياً) وتشكل الامومة بالنسبة لهؤلاء أحد مصادر هذه التجربة ومجالاً لتأكيد الذات. إنها تجربة ذات غنى وإثراء على صعيد تنمية شخصيتهن ( لقد مارست أمومتي بشغف، استمتعت وتسلّيت كثيراً في علاقتي بابني، لم تكن أمومتي واجب) ومع أن القلق ظهر جلياً في كل التجارب المعروضة حول مدى تقييم نجاح تجربتهن، إلا ان الجميع اتفق على استثمارهن الكبير والواعي في أمومتهم.

- الالتزام الايديولوجي:

تبرز فكرة الالتزام بقضايا المجتمع في العديد من التجارب ( هناك فارق بيننا وبين أمهاتنا وهو فارق ايديولوجي يتمثل بالالتزام بقضايا المجتمع، وأن لدينا دوراً من خارج امومتنا). ومع أن الأمومة كانت مصدراً هاماً من مصادر تأكيد ذاتهن، إلا أن جميع المشاركات عبرن عن نزوع يتخطى دورهن الامومي ناحية فعالية اجتماعية أوسع. لا بل ثمة اعتراض ضمني على تطلب الأولاد في الوقت الذي تبدو الامهات غير قادرات على تلبية مثل هذا التطلب نظراً لارتباطاتهن الأخرى. والملاحظ أن الانخراط الاجتماعي لدى هؤلاء الأمهات كان هو بذاته مرجعاً لممارستهن الأمومية (السفر مع الأولاد من أجل استكمال الأم لتجربة التعلم أو العمل، متابعة دائمة لشؤون الأولاد، مطالبة الأولاد بمشاركة أكبر في شؤون البيت...)

- اضطراب الأدوار:

تعبر النساء عن اضطراب الدور ( المشكلة برأبي هي أن حدود الأمومة لم تعد واضحة. دور الأم يتغير. نحن نجرب ولكن نجد أنفسنا نرتطم بحدود فنغير في سلوكنا) وهن يقمن مراجعة دائمة للذات. هل ربيت كما ينبغي؟ إنه سؤال مقلق وينم عن عدم التأكد من صوابية الدور في غياب نموذج مقبول نهائياً ("أريد أن أثبت أنني أم ناجحة". "أريد أن أكون ناجحة وأن لا اكون فاشلة في كوني أمّاً ومنتجة في آن"). وتعبر استجابات الأولاد المنقولة على ألسنة أمهاتهن عن هذا الاضطراب (اولادي يريدوني تقليدية وحديثة في آن. يعترض اولادي ويطالبوني بأن أكون مثل أمهات رفاقهم. كيف أتعامل مع صهري؟ كيف أتعاطى مع شخص جديد في الأسرة لن أستطيع أن أعب معه دور الأم؟)

ليس من قاعدة متينة تستند إليها هؤلاء الأمهات، الأم التقليدية لا تشكل نموذجاً مقبولاً أو كافياً، ولا يستطعن أن يقمن بمثل دور الأمهات التقليديات بسبب التزامتهن خارج اسرهن ( لا أستطيع أن أبقى مع ابنتي حين تنجب، لا وجود لإجازة للجدات) لا بل يرفضن القيام به ويستكرهن (

"ما زال مجتمعنا أمومياً إلى حد كبير، مجتمع حريم، الأم سوبر امرأة". ولا شك بأن هذا التغيير يخلق لدى الأمهات حالة قلق وخوف وصراع ( " في ما يتعلق بالحوار مع بناتي، أرى المسألة شديدة الصعوبة، أعيش صراعاً كبيراً. " كنت أعيش في داخلي قلقاً كبيراً، كنت أريد أن يتطابق سلوكي مع ما أفكر به، وأريد أن أتجاوز ما أراه في المجتمع". "أنا عندي خوف رهيب. الموروث حاضر بقوة في ذهني. كيف أستطيع أن أطور هذه العلاقة مع بناتي؟ هناك جوانب كثيرة في هذه المسألة تخيفني. عانيت في لحظات كثيرة").

- سلطة الأمومة:

إذا كان اضطراب الدور من المشكلات الكبيرة التي تم التعبير عنها، إلا أن سلطة الأمومة كانت بذاتها موضوعاً إشكالياً كبيراً. ولقد طرحته الباحثات المشاركات من زاوية دور الأب وسلطته. وطرح غياب الأب رمزياً (بسبب ضعف الدور) وفعلياً (بسبب السفر) كإشكالية كبيرة، إذ أجمعت المشاركات على الآثار السلبية لهذا الغياب واعترفن بالحاجة الماسة إلى دور أبوي مستقر ومشارك في تربية الأولاد. المطلوب دور أبوي فعال، وليس من داع لأن يأخذ الصور البدائية للأب السلطوي والمتفوق، لأن أهميته كبيرة في سيرورة الاستقلالية لدى الأبناء<sup>2</sup>. فإذا كان النموذج الأمومي التقليدي لم يعد مناسباً للاعتماد عليه في الأسرة الحديثة، وإذا كان النموذج الأبوي لا يشكل داعماً يخفف من آثار الاضطراب الناجم عن التغيير، فإننا نفهم مصدر القلق الكبير الذي تم التعبير عنه. أمهات حاضرات بقوة وبفعالية، ولكن في ظل مجتمع أبوي لا يتناسب مستوى تطوره مع تطور الدور الأمومي الحديث، وما ينجم عن ذلك من اضطراب في الأدوار الأسرية عموماً.

أما مسؤولية هذا الاضطراب في ممارسة السلطة فتقع، حسب النساء المشاركات، على النظام الاجتماعي السائد. ثمة مسافة ما بين الوعي الفردي والوعي الاجتماعي. وتبدو النساء الأمهات كحاملات لمشروع تغيير في حالة صدام مع مجتمع تقليدي أبوي. ويبدو الآباء كورثة سلطة لا يعترفون بضمورها ولا يعملون على خلق سلوك متلائم مع هذا الضمور. "الثقافة الأبوية التقليدية بأنظمتها الخاصة بالحماية والقسر والشهامة والطاعة لها سلسلة أوضاع لم تعد قائمة. إن الأبوية التقليدية بشكلها المحض لا يمكن أن تحيا في العالم الحديث، ليس لأنها "تقليدية"، بل لأنها لم تعد كذلك"<sup>3</sup>. دور أمومي متغير بالفعل وبالقوة، ودور أبوي متغير بالقوة وليس بالفعل. ثمة تفاوت في وتيرة التغيير ما بين الدورين ينعكس في ما أسمته المشاركات اضطراب الأدوار.

<sup>2</sup> Eliascheff,C;Heinich,N; Mères-Filles, une relation à trois, Paris, Albin Michel, 2002

<sup>3</sup> هشام شرابي؛ النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربية، السويد، دار نلسن، ٢٠٠٠، ص ٩٨

هذه بالإجمال بعض النواحي التي شكلت عوامل رئيسية في تغير الدور الأمومي، ولكن ما الذي ينجم عن هذا الشكل من التغير؟ ما هي محصلاته على صعيد شخصية الأبناء مثلما يمكن استقاؤها من النماذج الأمومية المشاركة.

#### ٤ - حاصل التغير: بعض سمات الجيل الجديد

طفولية الأبناء:

تلاحظ الأمهات أن هناك ميلاً متزايداً لدى الأولاد للإتكالية ولتحميل الأهل مزيداً من مسؤولية تسيير حياتهم. ومع أن الأمهات أنفسهن عرفن حياة أكثر استقلالية في عمر مبكر، فإنهن يعاملن أبناءهن برعاية واهتمام ومتابعة هن أنفسهن يعترفن بأنها تتسم بالمبالغة ( "أمي كانت لا تعرف الكثير من أموري، لذلك لم تكن تخاف". ربما الأولاد أكثر تطوراً من نواح معينة، ولكن بالإجمال هم أكثر اتكالية، صار ميل الأهل للاحتضان أكبر". "هناك كثير من الأمور أمي لم تكن تعرفها عن حياتي، ابنتي ومع أنها تعيش في أميركا فإنني أعرف كل تفاصيل حياتها"). يشير هذا الأمر إلى زيادة التوظيف في الدور الأمومي، وتبدو الأمهات وكأنهن لا يردن الاستقلال عن أولادهن ( "شعرت معهما أنني أم بشكل عميق، واليوم وهما بعيدتان عني أشعر بأن مساحتي تضيق، ربما أنا رسمت لنفسني أن أبقى أما كل الحياة". "مجتمعنا ما زال أمومياً بشكل كبير").

والملاحظ في تجربة نساء العينة، أنهن، في ما عدا الحالة الأولى، لم يلجأن بشكل حاد إلى القطع مع تجربة أمهاتهن. إن أمهات العينة شديداً التوظيف في تربية أولادهن، وهن أيضاً بنات لأمهات شديداً التوظيف في أولادهن، الفارق ما بين هذين الجيلين هو كيفية عيش هذا التوظيف، لجهة قلق أكبر لدى أمهات اليوم ("إذا أردت أن أختصر الفارق بيني وبين أمي أرى أنه يتمثل في أننا أكثر قلقاً) ولجهة رغبة أكبر بإثبات الذات (مساري دائماً كان أن أثبت نفسي) ولجهة التطلع نحو الفاعلية الاجتماعية ("لم أشعر بأي تناقض بين تحقيق ذاتي، أي أن أنتج واشتغل، وأن أكون في الوقت نفسه أما". "كوني منتجة، وأرّي بناتي بمفردتي، خلق لدى الرغبة بيني وبين نفسي أن أربيهن على أحسن وجه ممكن. أريد أن أثبت حضوري"). في الجيل السابق كانت الأمومة شأنًا شخصياً يعاش على صعيد الداخل ويتمحور المرود المنتظر منه على رعاية الإبناء لاحقاً لوالديهم وخصوصاً رعاية الأم/المعطاء والحنون. في التجربة الجديدة بدأت الأمومة تتحول إلى فعل اجتماعي عام مؤثر وله مردود على صعيد الطموح والقدرة على إثبات الذات، والهدف المنتظر من الدور الأمومي تخطى طلب الرعاية من الأولاد إلى طلب استحقاق من المجتمع بأسره.

ونفهم في مثل هذا السياق، لماذا لم تعد تقنيات التربية متركزة حول "نضوج الشخصية" و"تحمل المسؤولية" مثلما كان عليه الأمر في السابق ("كان الرجل في عمر ١٣ يهاجر للعمل في الخارج") فمع شعور أقوى بالتمكّن empowerment لدى الأمهات، باتت لدى الأطفال فرصة أكبر في عيش طفولة أطول.

- أنوية/ فردانية الأبناء:

تعبّر الأمهات عن زيادة أنوية الأولاد. ويتجه هذا الكلام في منحيين إيجابي وسلبي. في المنحى الايجابي يبدو الأولاد كأفراد لهم مكانة وحقوق خاصة ( "إبني لم يكن امتداداً لي. إنه شخص قائم بذاته (individu). شخص تام يمتلك حكمة (sagesse). أنا احترمت ابني منذ صغره". " أولادي يميلون لمناقشة كل شيء وكيف ولماذا") أما في المنحى السلبي، فيستدعي هذا الأمر شكوى الأمهات ("الأولاد اليوم أكثر صعوبة، طلباتهم أصعب من طلباتنا في السابق". " يريدوننا مودرن وتقليديين في الوقت نفسه. وبالنسبة إليهم يجب ان تكون الأولوية لهم. إنه موقف أناني". " كنا نشعر مع أهلنا، ولكن هذا الجيل لا يشعر بأهله"). إنه واقع مرتبط بما سبق الإشارة إليه من عيش تجربة الطفولة على نحو أكثر امتداداً، ولكنه من جهة أخرى مرتبط كذلك ببنية اجتماعية تتسم بالتناقض ( أنا أطلب اولادي بالمساعدة ولكنهم يرفضون، ويقولون لي انظري إلى رفاقنا، وكيف يتصرف أهلهم معهم، انت استثناء). أي أن الأولاد يتعرضون لأنماط تربية متناقضة.

ويقدم لنا هشام شرابي تحليلاً يساعدنا على فهم هذه الظاهرة. فبرأيه هناك "ناحية هامة تتميز بها كافة أنواع الأبوية المستحدثة، ألا وهي غياب التقليدية الأصيلة، وبالمقدار نفسه غياب الحداثة الحقة. ففي المجتمعات الأبوية "المحدثة" يصعب الوقوع على فرد أو مؤسسة حديثين حقاً أو تقليديين حقاً"<sup>٤</sup>، أي أن الوجهتين التقليدية والحديثة تتواجدان معاً في المجتمع نفسه. الأمر الذي يردنا كذلك إلى تفاوت انعكاس التغيير الاجتماعي على كل من الدورين الأمومي والأبوي من ناحية سرعة تغيير الأول وبطء تغيير الثاني.

مهما يكن الأمر، فإنه يمكن الاستدلال على موقع متميز للأطفال، وإن كان ذلك لأسباب مختلفة، البعض ردها إلى ظروف الحرب، والبعض إلى بقاء الأمهات مع الأولاد في غياب الأب، والبعض إلى الشعور بالمسؤولية والالتزام تجاه الأولاد. ويشكل هذا الواقع انعكاساً مباشراً لما لاحظناه من شدة توظيف في الدور الأمومي.

- عقلانية/استقلالية الأبناء:

<sup>٤</sup> هشام شرابي؛ المرجع السابق، ص ٦١

تكلّمتنا عن سمتين لنتائج السلوك الأمومي الجديد، أبناء أكثر طفولية وأكثر أنوية. ولكن المفارقة هو في ما تشير إليه أحاديث الأمهات عن أبناء أكثر عقلنة وحضوراً واستقلالية ( "أولادنا يعرفون أنفسهم بطريقة أفضل اليوم. الأدوار أكثر وضوحاً". "ابني شخص لديه حكمة". "أنا أمومتي كانت إلى حد ما عشوائية، في حين ان ابنتي بعد أن تزوجت وحملت عبرت عن نفسها بشكل مختلف، خطت لإجابها وفكرت فيه").

وتشير مداخلات الأمهات أيضاً إلى نمط مختلف من التعامل مع الأولاد. (أنا احترمت ابني منذ صغره، ولكنني أيضاً حافظت على سلطة معينة". "نحن لا نستطيع تبني أي قاعدة إلا بعد أن نبررها ونفعلها". "أنا لا أدعي أنني أعرف كل شيء، ولا أتدخل في حياتهم، ولكني أريد ان يشعروا بأنني سند، بوسعهم أن يجدوني حينما يحتاجون". "بناتي قطعن شوطاً كبيراً في التقدم عني"). هذه المداخلات تنبئنا عن تغيير حاصل داخل الأسرة. لم تعد علاقات الأسرة هي نفسها كما كانت في الماضي، مثلما حلها علي زيعور في السبعينيات وبينّ فيها أن "العائلة شديدة الوطأة، مما يهيء الولد لأن يطيع في شبابه. فالكثير من وسائلنا التربوية التقليدية لا تعدّه لأن يقارع ويناقش بقدر ما تنمي فيه الالتواء والازدواجية والاعتماد على الكبير"°، والتي رأى شرابي فيها أن "الأب، أي شكل النموذج الأصلي للأبوية المستحدثة، لهو أداة القمع الأساسية"٦. إن واقع الحال اليوم يشير إلى أن الأب لم يعد هو الشخص الوحيد المعتمد عليه، ولم يعد أداة قمع أساساً، مما أفسح في المجال لتعبيرات الأولاد بالإعلان عن نفسها.٧

هذا يعني أن أمومة واعية ومسؤولية، ضمن حدود أسرية واضحة من حيث التمثلات الوالدية، من شأنها أن تخلص إلى إنتاج نماذج شخصية متوازنة وعقلانية. الشرط الأساسي للنجاح في الدور الأمومي (والأبوي أيضاً) أن تستوي تلك النماذج الشخصية في بنية اجتماعية قابلة للتكيف مع هذا الانتاج وقادرة على رده بمرجعية رمزية (سياسية وإيديولوجية) ملائمة لكي ينتج وينمو.

° علي زيعور، التحليل النفسي للذات العربية: أنماطها السلوكية والأسطورية، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٧ مذكور في شرابي، مرجع مذكور، ص ٨٧

٦ المرجع نفسه.

٧ وتشير مشاركة الشباب اللبنانيين في الأحداث السياسية الأخيرة إلى مدى الالتزام والوعي اللذين تجلبا خلف تلك المظاهر الفردية، وبينت بطان الانتقاد والتشكيك بالدور الشبابي الجديد

## «عمّا إبكي بدي رفيقه»: بنيوية خاصة بالنساء

أول من تنبّه إلى وجود اللاوعي كان الفيلسوف نيتشه، القائل بأن الإنسان مسير بإرادة السلطه. ومن الواضح أن فرويد تأثر به كما تأثر بالفكرين الدارويني والرأسمالي اللذين سادا الزمان والمكان اللذين عايشهما. ويظهر هذا التأثير في نظريات فرويد التصارعية والمبهوره بالسلطة في تكوّن ودينامية كل من الذات والمجتمعات الإنسانيين. وفرويد، بعكس الماركسيين<sup>(\*)</sup>، يصرّ على وجود غريزة تنحو نحو العداة-الموت-السيطرة (mastery) في مقابل غريزة الحب-اللذة-البقاء، وأحياناً يرى أن الغريزة الأولى هي الأخطر والأقدم والأبقى<sup>(١)</sup>. وقد عبّر عن نموذجية قتل الأب للاستيلاء على السلطة التي يتفرد بها في أسطورة «موسى وعبادة الله الواحد» وعن عدائية مماثلة في وصفه لعقدة الأوديب، التي يعتبرها حجر الزاوية في بناء الذات ومكمن التكوّن العاطفي للفرد.

### نجلاء حماده

ولو لاحظنا أن التحليل النفسي، المتبني

(\*) لأن فريديك انغلز يؤمن بالمساواة ولا يؤمن بوجود عدائية أصيلة يرى أن اختلاف الأدوار في العائله قام في الأساس على تقسيم المهّمات الإنتاجية، بينما يرى الدارويني هيربرت سينسر أن عامل القوّة وغريزة العداة بين الأشخاص ورغبة الواحد بالتسلّط على الآخر هي أساس هذا الاختلاف وهذا التقسيم للأعباء<sup>(٢)</sup>، وفرويد ينسج على منوال سينسر.

(١) See Jean Laplanche, *Life and Death in Psychoanalysis*. Tr. Jeffrey Mehlman, Baltimore and London: The John Hopkins University Press, 1976. p.5.

(٢) Karen Sacks, *Sisters and Wives: The Past and Future of Sexuality*. Urbana, Chicago & London: University of Illinois Press, 1982. p. 97.

للبنويّة الأنثروبولوجية، هو علم «لين» (أي غير دقيق) بحسب كارل بوبر وهو مجال لا يطاله البرهان وفق ما يثبته بول ريكور<sup>(٣)</sup> لتحتّم علينا أن نأخذ بعين الاعتبار منطلقات وخلفيات واضعي هذا المنحى كي لا ننجرّف وراء أهواء عصفت برؤى عباقرة كبار فأثّرت أيضاً في مفاهيم ومنطلقات أجيال من تابعيهم ومطبّقي نظرياتهم، سواء أكانوا من ذوي الاختصاص أم من الناس العاديين الخائفين على أنفسهم وعلى من هم في عهدتهم من العصاب ومما هو أخطر منه.

فإن كانت الغاية من وضع هذا المجلّد من «باحثات» هي تقصي الحقيقة المعاشة، بعيداً عما يقال (\*\*\*) ويتداول، فالأحرى أن يُعنى هذا التقصي بالبحث عن الواقع الجامع قبل الواقع الفردي وبالعمل على إزالة الغشاوات التي تموّه فهمنا للناس كجماعات قبل تلك التي تحجب الحقائق الفرديّة أو تلونها بغير ألوانها.

وقبل تناول الموضوع المحدّد الذي أقصد، أحبّ أن أبدأ بذكر بعض الأمثلة من نوع بعينه من هذا التمويه، قديمه وحديثه، وصولاً إلى ما يوازيه عند فرويد الذي تبعه كثير من البنيويين، ومن بينهم بعض النسويين. وتوخياً للاختصار والوضوح سأوجز كلاً من هذه الأمثلة على حدة:

١. عند قدماء اليونان، من يُعتبرون واضعي حجر الأساس لما يسود حتى الآن من حضارة تأثّرت بها الحضارة العربيّة إلى حدّ بعيد، أدّت ملاحظة تميّز النساء بالعاطفيّة إلى هجوم قيمي على العاطفة وتمجيد للعقل الذي اعتُبر أن من تنقصه العاطفة يتميّز به. ومما أدّى إليه هذا المنطلق المستهجن - لوجود عواطف خيرة وجميلة

(٣) See Paul Ricoeur, *Freud & Philosophy: An Essay on Interpretation*, Tr. Denis Savage, New Haven & London: Yale University Press, 1970. Book III.

(\*\*\*) نحا فرويد في أعماله الأولى نحو استنباط تعاليل كيميائية أو فيزيائية للسلوك ودوافعه. لكنّ خبرته السريريّة وأعماله النظرية اللاحقة جعلاه يعيد النظر في مكونات الرغبة. وفي سياق عمل جاك لاكان على إتمام ما لم يتسّر لفرويد إنجازاه في حياته<sup>(٤)</sup>، اعتبر لاكان أن الرغبة تتكوّن على شاكلة اللغة. لكن هذه النزعة نحو مركزيّة اللغة في تكوين الرغبة الحاملة للدوافع والطاقت قد تكون رداً متطرّفاً على المنطلق الفرويدي الأوّل وترويجاً لقدرة التحليل النفسي الذي أطلقت عليه إحدى شهيرات المرضى الفرويديين اسم «العلاج الكلامي». إنها نزعة تشكّل فرضية قوامها أن ما لا يقال لا يُعرف، وهي فرضية قد تكون صائبة إلى حدّ بعيد، ولكن ليس بالشكل الكلي القاطع الذي عبّر عنه لاكان. وفي سياق هذا العمل، لا بدّ أن يلاحظ أن ما يقال هو ما يتقبّله المجتمع وما يتفق مع التربية المجتمعية، وكلاهما حريّان بأن يحجبا أو يموّها الواقع الذي نتوخّاه في هذا العدد من «باحثات».

(٤) *Le Seminaire de Jacques Lacan, (Livres 1-20) Texte établi par Jacques-Alain Miller, Paris: Edition du Seuil, 1975. p. 97*

مثل الرحمة والإيثار والصفح والتوبة والحنان على الآخرين إلخ، ولمعرفة كل إنسان برجال محدوددي العقل وبنساء راجحيه ممّا يدحض التعميم المدّعي العكس كحقيقة بنوية شاملة - وضع نظريات في علم الأخلاق تجعل الخلق الكريم ما بعد عن العاطفه وما اقتصر الخيار الأخلاقي فيه على حكم العقل<sup>(٥)</sup>. وقد انتقد هذا المنحى الفيلسوف نيتشه الذي فضّل الحساسيه الخلقية على أي ادعاء لوجود علم للأخلاق، خاصة بعد ما كشفه من أن الأنساق الخلقية ما هي إلا أساليب ناجعة للاستيلاء على السلطة<sup>(٦)</sup>. ومؤخراً انتقدت هذا المنحى العقلاني الصرف في القياس الأخلاقي فلاسفه نسويات أمثال كارول غيليفان وأنيت باير اللتين طالبتا بدمج الطبائع النسائية مع الطبائع الذكورية لاستخلاص معايير أخلاقية يمكن قياس الجنسين بها دون تحيز لطبائع تميّز، أو يدعى أنها تميّز، جنساً وضدّ طبائع قد تميّز الجنس الآخر<sup>(٧)</sup>.

٢. وحتى في الزمن المتأخر، لا نزال نجد عند إجراء دراسات تقارن بين الجنسين، أن بعض الدارسين يميلون إلى التقليل من شأن أي صفة أو مقدرة تتفوق فيها النساء على الرجال. ففي عام ١٩٦٨ مثلاً أطلق الباحثان جون غاري وألن شنيفلد على خصائص وجدا أن النساء حققن فيها نتائج أفضل من الرجال اسم «معطيات للعمل المساعد» (Clerical abilities)<sup>(٨)</sup> وفي عام ١٩٧١ اعتبر جون غراي أن صفات أخرى تفوّقت النساء بها تشكّل مؤشراً على «تفوّقهنّ على الرجال» بالتخوّف (fearfulness)<sup>(٩)</sup>.

٣. هذا النوع من الانحياز في استبطاط معاني أي اختلاف بين الذكور والإناث لا يزال قائماً حتى بين عالِمات الأنثروبولوجيا النسويات. فمثلاً استنتجت نانسي شذورو أن كون الفتاة تنشأ بقرب النموذج الذي ينبغي لها محاكاته (الأم) وكون الفتى يبقى نسبياً بعيداً عن النموذج الذي عليه محاكاته (الأب)، بسبب وجود الأب خارج المنزل سحابة نهاره من أجل العمل، يؤدي إلى قدرة أكبر عند الصبي على الاستقلال الذاتي

See for example, Immanuel Kant, *The Grounding of the Metaphysics of Morals*. (٥)

See Friedrich Nietzsche, *Genealogy of Morals* (٦)

See Carrol Giligan, *In a Different Voice & Annette Baier, What Do Women Want in a Moral Theory*. (٧)

See John Garai & Allan Scheinfeld, "Sex Differences in Mental and Behavioral Traits", *Genetic Psychology Monographs* 77, 1968. pp. 169-299. (٨)

See John Gray, "Sex Differences in Emotional Behaviour in Mammals Including Man: Endocrine Bases", *Acta Psychologica* 33, 1971. pp. 29-46. (٩)

وعلى التجاوز (transcendence) المطلوب في استخدام الرمز<sup>(١٠)</sup>. هذا، رغم ما تثبته الاختبارات الكثيرة من تفوق الإناث في المقدرات اللغوية، التي جعلها رمزي!

بعد هذه الأمثلة، سألج موضوع ورقتي هذه وهو ما سمّاه فرويد ومن تبعه «عقدة الأوديب السلبية». وأردت بالأمثلة، وهي قليل من كثير، اللفت إلى المنطلق «الذكوري» لرؤى هي في صميم البنيوية الأنثروبولوجية. فلعلّ هذا اللفت يهيئ القارئ إلى تقبل فرادة بنيوية في تكوّن الشخصية النسائية، دون اعتبار هذه الفرادة نقصاً أو انحرافاً أو تفصيلاً غير ذي بال. فلا داعي منطقياً يجعل الرجل مقياساً في فهمنا للمرأة. ولا يوجد مبرر لإهمال خصائص تتفرد بها المرأة كـ «عقدة الأوديب السلبية» لمجرد أنها ليست موجودة عند الجنس المهيمن على السلطة بأنواعها بما في ذلك المعرفة وأساليبها.

### عقدة الأوديب السلبية

نلاحظ من التسمية تحيزاً «سلبياً» مبدئياً لما ترمز إليه هذه المرحلة. وقد لا يعود الأمر مستغرباً عندما نعلم أن هذا النوع من الأوديب هو مرحلة تمر بها الإناث دون الذكور، وأنها أيضاً مرحلة قد لا تصبّ في اعتبار الرغبة الإيروتيكية مصدراً أساسياً للحب. فهي «سلبية» لأنها تناقض المسار المطلوب لتكوين الشخصية المرغوبة. ولو علمنا أن التحليل النفسي الذي يعتقد أن بناء الشخصية يتم في السنوات الخمس الأولى يقول إن الطفل يمر بمرحلة الأوديب من منتصف عامه الرابع وحتى نهاية عامه الخامس، وإن فرويد يلاحظ أن الأوديب السلبى الذي تتفرد به الفتيات يستمر أحياناً خلال معظم سنتهنّ الرابعة وفي حالة واحدة حتى سنّ الخامسة<sup>(١١)</sup> لاستغربنا اعتبار هذه المرحلة، بالنسبة إلى الفتيات، رديفة أو نقيضة لمرحلة أقصر منها مدّة ولاحقة لها في الزمن. خاصة عندما نأخذ بعين الاعتبار أهميّة الفترات الأولى من عمر الطفل أو الطفلة في تكوين بنية شخصيته أو شخصيتها.

وفرويد يؤكّد أن البراهين على أهميّة عقدة الأوديب بوصفها الظاهرة المركزية

See Nancy Chodorow, "Family Structure and Feminine Personality", *Women Culture and Society*. Eds. Michelle Zimbalist Rosalco & Louise Lamphere, California: Stanford University Press, 1974. pp. 43-66.

Sigmund Freud, "Female Sexuality"(1931), *On Sexuality: Three Essays on the Theory of Sexuality and Other Works*, Tr. under the general editorship of James Strachey. New York: The Pelican Freud Library, vol. 7, Pinguin Books, 19977, p372.

للمرحلة الجنسية في الطفولة المبكرة تتكاثر مع الزمن<sup>(١٢)</sup>. ويؤكد من بعده جاك لكان أن عقدة الأوديب تشكل منطلقاً ضرورياً لوجود تجربة التحليل النفسي، وأنها تهيمن على عمل فرويد منذ بداياته وتحافظ على مركزيتها حتى نهاياته<sup>(١٣)</sup>. وعندما لفت فرويد المستمعون إلى محاضراته عن «حل عقدة أوديب» (١٩٢٤) إلى أن ما يقوله في وصف تلك العقدة ينطبق على الذكور فقط، أجابهم بأن البنات أيضاً تتكون لديهن عقدة أوديب، مع غموض غير مفهوم<sup>(١٤)</sup>.

وعقدة الأوديب السلبية هي ببساطة الاسم الذي أطلقه فرويد على كون الفتيات يمررن في طفولتهن الأولى بمرحلة تكون فيها الأم -كائن من جنسهن- محور ما يشعرن به من حب، قبل تحول هذا الحب إلى الأب -شخص من الجنس الآخر- في مرحلة عقدة الأوديب، وهو تحول ضروري بنويماً كي تتشكل لدى الفتاة الشخصية الأنثوية المطلوبة. وهذه العقدة السلبية لا يميز بها الفتيان لأن حبهم يتمحور قبل الأوديب ثم خلاله حول الأم -مخلوق من الجنس الآخر- وهو المطلوب بنويماً من أجل تكون شخصيتهم الذكورية. ومع أنه من المتوقع أن يشكل هذا الفارق الهام بين شكل عواطف الجنسين في المراحل الأولى التي تتكون فيها شخصياتهم تفاوتاً كبيراً بين عواطف الإناث وعواطف الذكور يبقى وصف التحليل النفسي البنوي لتشكل شخصيات الإناث كما الذكور متمحوراً حول مرحلة عقدة الأوديب، ويبقى الاختلاف بين الجنسين راجع إلى تفاوت وضعيّة الفتيات عن وضعيّة الفتيان خلال هذه العقدة وإلى الاختلاف في كيفية انحلالها (عند الصبي) أو البقاء في بوتقتها (عند البنت).

فمن تفاصيل هذا الاختلاف مثلاً «إخفاق» الفتاة في حل عقدة الأوديب. فالصبي يحلها عندما يدرك أن المحبوبة مخصية «فتنزل من عينه» بينما تبقى الفتاة حاملة للعقدة - لأنه ليس في الذكورة ما ينزلها من عينها - بل على العكس تتملك الفتاة الغيرة من الذكورة والشعور بالنقص لأنها لا تملك عضواً ذكرياً. ومن تفاصيل هذا الاختلاف أيضاً نقص العدائية عند الفتيات عما هي عند الفتيان، بدليل أن الأخير يشعر بالعداء تجاه من يقاسمه محبوبته في مرحلة العقدة، ويتوجه نحو من كان محبوباً بعدائية تقضي على تعلقه أو تضعف من هذا التعلق عند حلها. أما عدائية الفتاة فهي أقل

(١٢) "The Dissolution of the Oedipus Complex" (1924). Ibid, p. 315

(١٣) The Seminars of Jacques Lacan. Edited by Jacques Alain miller, Book I, "Freud's Papers on Technique" 1953-1954. Translated with notes by John Forrester, New York & London: W.W. Norton & Company, 1975. p. 198.

Ibid. p. 320 (١٤)

فعالية وهي محببة منذ بداياتها. فشعورها، مثلاً، بالعدائية تجاه والدتها لأنها لم تعطها عضواً كالذي أعطته لشقيقتها من شأنه أن يؤدي إلى التفاف العدائية على الذات لتتحول إلى عصاب أو مشاكل نفسية أخرى بدل من أن يؤدي إلى عدائية فاعلة في العالم الخارجي.

وإن ذكر فرويد تأثير عقدة الأوديب السلبي على النساء فهو يذكره كحالة مرضية أو «شاذة»، إذ يقول بأن اعتماد الفتاة على الأم يؤدي بها إلى البارانويا المرتبطة بالهستيريا<sup>(١٥)</sup>. ويقول أيضاً إنه رغم كون كل من النساء والرجال مكونين من خليط من الجنسين إلا أن هذا الازدواج الجنسي أو التوجّه المثلي يظهر بوضوح أكبر بكثير في النساء منه في الرجال، بسبب شكل مرحلة ما قبل الأوديب التي يمرّون بها<sup>(١٦)</sup>. ورغم أن فرويد لا يربط بين ما يقوله في نرجسية حب النساء وبين عقدة الأوديب السلبية، لأنه لاحظ هذه النرجسية قبل تنبّهه للأوديب السلبي بما يقارب العشر سنوات، فمن السهل الربط بينهما. وقد يكون ما لاحظته فرويد من اختلاف في النسق بين حب الذكور للإناث وحب الإناث للذكور بحيث يحب الرجل المرأة كمخلوق آخر ويبقى حبّ المرأة للرجل «حباً لحبّه لها»، أي حباً نرجسياً، هو في الحقيقة توزّع لعواطف النساء بين جنسهنّ والجنس الآخر وتعلّق أقلّ نسبياً بالمحسوب من الجنس الآخر، سببه قصر مرحلة الأوديب عندهنّ قياساً بمرحلة الأوديب السلبي وقصر المرحلة من الطفولة الأولى التي تتعلّق فيها الفتاة بشخص من الجنس الآخر (والدها: منذ نهاية الأوديب السلبي حتى نهاية الأوديب) قياساً إلى مرحلة تعلّق الصبي بإنسانته من الجنس الآخر (والدته: منذ الولادة وحتى نهاية الأوديب).

فلعلّ ما اعتبره فرويد نرجسية أو مثلية أو اقتراباً من الهستيريا عند النساء يرجع إلى الواقع الموضوعي الذي يحكم مسار تكوّن شخصياتهنّ، فيكون ما أسماه نرجسية هو في الحقيقة نزوع غير إيروتيكي وأقوى من الحب الإيروتيكي نحو حبّ أناس من جنسهنّ. ولعلهنّ من خلال هذا الحب أو إزاءه يتقمّصن دور الأم التي تحبّ أولادها أكثر من محبّتها لأي كائن آخر، بما في ذلك رجلها. ومن هنا ما يقال عن نقص حبّها للرجل عن حبّه لها، وما يقال عن رغبة الرجل بالزواج من أجل الحصول على المرأة ورغبة المرأة بالرجل من أجل الحصول على الزواج (الأولاد). ومما يدحض القول بأن النرجسية هي أقوى عند النساء ممّا هي عند الرجال ما نجده في أدبيات ما بعد الحداثة

"Female Sexuality", Op. Cit. pp. 373-374. (١٥)

Ibid. p. 374. (١٦)

التي تجمع على أن ذات الرجل هي المغلقة والمحددة المعالم قياساً بذات المرأة المنفتحة وذات الحدود التي يمكن اختراقها بسهولة نسبية.

أما القول بأن النزعة الإيروتيكية هي أقوى أو أكثر فاعلية عند الرجال ممّا هي عند النساء، فقد يكون سببه أن حبّ النساء هو محبة (مثال حبّ الأم) قبل وأكثر ممّا هو رغبة أيروتيكية، بسبب تاريخية تكوينهنّ التي يحلّ فيها أولاً حبّ من هي ليست نموذجاً لما ستطلبه نزعتهنّ الإيروتيكية. ولعلّ ما وجده سلمان اختر من أن المرأة تتمنّى أن تجد في رجلها صفات أخلاقية واجتماعية بنسبة أكبر ممّا تتمنّاه فيه من صفات جسديّة أو جماليّة في حين أن الرجل يركّز على الصفات الجسديّة في المرأة التي يتمنّى<sup>(١٧)</sup> مرده أن الحب غير الإيروتيكي يبقى هاماً في ما ترغبه المرأة حتى في اختيارها موضوع الجانب الإيروتيكي من حياتها.

وهذا الفارق في نوعية الحب يقودنا إلى التساؤل حول تسمية الأوديب السلبي «عقدة». فالعقدة في الأوديب سببها الرغبة الإيروتيكية بإنسان ممنوع -الأم أو الأب- ومحجوز ككائن إيروتيكي للكائن الآخر المركزي في الدراما العائليّة -الأب أو الأم. لكن المحبة التي ينتفي طابعها الإيروتيكي أو يكاد بسبب التماثل في الجنس فقد لا تكوّن عقدة، لأنه من طبيعة المحبة أن لا تصرّ على الاستئثار بالمحبوب إلى الحدّ الذي يصرّ عليه الحب الإيروتيكي. وقد يكون هذا هو السبب في نقص العدائيّة عند الإناث عمّا هي عند الذكور. أي أن سبب هذا النقص هو في عدم وجود «عقدة» أمام رغبتهمّ وليس كما يقول فرويد في عدم وجود «نقص» في المحبوب يستدعي العدائيّة للقضاء على التعلّق «المرضي» به.

وتستنتج تيريزا برنن من ذكر فرويد لعقدة الأوديب السلبيّة ما تغافل هو عن استنتاجه قائلة: «من قول فرويد هذا يتولّد الانطباع بأن تعلّق الفتاة اللاحق بوالدها ما هو إلاّ صباغ أو غطاء خارجي»<sup>(١٨)</sup>. وأحياناً يعترف فرويد نفسه بتأثير مسار بناء الشخصية هذا عند الإناث عندما يقول: «ان الديناميكية النفسية المترسّخة في الطفولة تظهر في نمطيّة مسار علاقات كل امرأة بالرجال في حياتها، رغم أن هذه الديناميكية تكون قد قامت في البدء على أساس علاقتها بوالدها»<sup>(١٩)</sup>. لكن هذه الملاحظة تبقى

Akhtar, Salman, *Objects of our Desire*, New York: Harmony Books (Division of Random House Inc.), 2005. pp. 96-104.

Teresa Brennan, *The Interpretation of the Flesh: Freud and Femininity*, London & New York: Routledge, 1992. p. 50.

Sigmund Freud, cited in *Ibid.* p. 50. (١٩)

عابرة عند المحللين النفسيين في سياق تصوير عملية البناء للشخصية الإنسانية ويبقى التركيز في فهم البنى العاطفية عند النساء على عقدة الأوديب وعلى الناحية الإيروتیکیة تماماً كما هو الحال عند الرجال، ويبقى الحب بالمطلق ودائماً إيروتیکیاً أو إيروتیکی الأصل!

وفي هذا السياق، يجب ذكر ما قاله فرويد في مناسبة عيد ميلاده السبعين لمن أتهمه بالتركيز على الموضوع الإيروتیکی. فقد كان جوابه: «لأنني عشت في زمان ومكان يجمع الحب الإيروتیکی قررت اتخاذه محوراً للديناميكية العاطفية. ولو كانت الروحانية هي المقموعة لكننت على الأرجح اتخذتها هي محوراً لما أردت قوله».

إذاً قد يكون كل ما اعتبره المحللون النفسيون مركزياً ومنزلاً لم يكن كذلك بالنسبة لمعلمهم الأول. وقد يكون هذا التحجّر في التسليم بأن ما اعتبره فرويد بنويماً لا يزال المنطلق المقبول، حتى لكثير من ناقديه، بحيث يصرون مثلاً على تمحور العواطف حول الإيروتیکی أكثر مما يصّر فرويد نفسه على ذلك يرجع إلى أسباب مثل الخوف من تحمّل مسؤوليّة التغيير المبدع في موضوع يمسّ إمكانية تعريض من يربون أو يعالجون بحسب نظريات جديدة غير مجرّبة إلى الجنون<sup>(٢٠)</sup> أو العصاب أو الانحراف. وقد يكون السبب الأساسي للإبقاء على هذه الحرفية عند كثيرين رغم التغير الاجتماعي نحو المساواة الذي حققه المجتمع الإنساني مؤخراً سببه رغبة «البطاركة» بالإبقاء على استئثارهم بالسلطة وبالمكانة المركزية، إن في العائلة أو في التفسيرات والنظريات «العلمية»، أو إلى عدم تمكّن «النسويات» من عالقات الأنثروبولوجيا والمحللات النفسيات من كسر تأثير المعتقدات الراسخة أو المهيمنة لطغيان تكوينهنّ الاجتماعي في مجتمع ذكوري.

ولو تجرّأنا على الادّعاء أن لما سمّاه فرويد «عقدة الأوديب السلبية» تأثيراً بنويماً في تكوين شخصية الفتيات وفي قولبة عواطفهنّ، وأن هذا التأثير قد يساوي أو يفوق تأثير عقدة الأوديب التي صنعت على قياس الصبيان وأقحمت البنات فيها وادّعى أنها الأهم في بناء شخصياتهن كما في بناء شخصياتهم، لتمكّننا من تفسير مناح عاطفية وأنسقة شخصية تطالهنّ وتبني لاختلاف واضح بين الجنسين.

ومما لاحظته، في هذا الصدد، أنه غالباً ما تختار النساء نساء أخريات كالمركز

See Alanen, Y. O. "The Mothers of Schizophrenic Patients", Acta Psychiatrica Scand. V. 33, (٢٠) (Supplement 124), 1958. Where the conclusion threatens mothers who do not respect the role of the father with the development of a predisposition to psychosis in their children.

الرئيسي لعواطفهنّ. فيمكن ردّ هذا الاختيار إلى تأثير مرحلة «عقدة الأوديب السلبية» التي مررن بها في سنواتهنّ الأولى البعيدة التأثير في تكوين شخصياتهنّ. وقد يكون ما ذكره فرويد عن «مثلية» أكثر وضوحاً عند النساء هو تسمية غير دقيقة لمنحى يرجع منشؤه إلى الفترة قبل الإيروتيكية وقبل عقدة الأوديب من الطفولة.

### أمثلة من لعب الأطفال ومن الأدب

يقول فرويد إن أول ظهور عصابي يتسبب به التباعد العاطفي ما بين الطفل وأهله، يظهر بواسطة المخيلة الذكّية والخلافة في لعب الأطفال<sup>(٢١)</sup>. وهذا يذكّرني بلعبة طالما لعبناها في مرحلة الطفولة، حيث تقف إحدى الفتيات الصغيرات وسط حلقة من رفيقاتها متظاهرة بالبكاء، فتسألها الفتيات المتحلّقات حولها: «آه يا سلمى ليش عم تبكي؟» فتجيبهنّ: «عما إبيكي بدي رفيقه». وتأتي النهاية السعيدة عندما يجبنها: «قومي نقي لك رفيقه»، فتنتقي واحدة وقد حلّت البسمة والانشرح على وجهها مكان العبوس والانكفاء. ولعبة «عما إبيكي بدي رفيقه» هذه ترمز بشكل معبر إلى حاجة الفتاة إلى التعاطف مع واحدة من جنسها. وهي كما الألعاب عادة، تؤطر هذه الرغبة وتعبّر عنها في بوتقة الأصول والقواعد المقبولة اجتماعياً، مستخدمة الترميز لتحويل الرغبة اللاواعية وما قد يترسّب في موقعها من ممنوعات إلى رغبة واعية في إطار ما يتقبّله المجتمع. ولا أعرف لعبة يلعبها الفتيان بمعان مشابهة لهذه.

ويقول فرويد أيضاً إن الأدباء يملكون شفافية تمكّنهم من رصد الرغبات الدفينة في نفوس الآخرين ويملكون الجرأة للتعبير عمّا يعتمل في اللاوعي الجماعي<sup>(٢٢)</sup>. وقد قرأت مؤخراً رواية لأديبة أميركية من أصل صيني اسمها ليزا سي تروي فيها قصة فتاتين عقدتا بينهما عقد «نظيرتين قديمتين» (old same) بحسب تقليد كان متبعاً في العائلات الصينية البورجوازية في القرن التاسع عشر. وفي هذه الرواية تقول البطلة عندما تظن أن «نظيرتها القديمة» خانتها باتخاذها صديقات أخريات: «كان الألم مختلفاً عن أي ألم عرفته في السابق -متغلغلاً وحاداً، أسوأ بكثير من آلام الولادة... ثم حدث أكثر الأمور غرابة. اجتاحت مخيلتي صورة لأمي. تذكّرت كيف، عندما كنت طفلة، أردتها أن تحبني. اعتقدت في ذلك الوقت أنه باستطاعتي استمالة عواطفها لو قمت بكلّ ما تطلبه مني أثناء تربيط قدمي. ظننت أنني استملتها، لكنها لم تكن في الواقع تشعر نحوي بأي عاطفة. كانت لا تهتمّ إلا بغاياتها الأنانية، تماماً مثل سنو فلاور [نظيرتها

(٢١) Freud, On Sexuality, op.cit. p. 222

(٢٢) Ibid. p. 224

القديمة]. كان الغضب هو ردّ فعلي الأولي تجاه كذب أمي وقلّة عطفها عليّ، ولم أسامحها أبداً، ومع مرور الزمن ابتعدت عنها تدريجياً، وشيئاً فشيئاً تحرّرت عاطفياً من تأثيرها عليّ. وهذا ما سأفعله مع سنو فلاور كي أحمي قلبي. لن أدع أحداً يلحظ أنني أموت.. لأنها لم تعد تحبني»<sup>(٢٣)</sup>. وتذكر بطلّة الرواية في موقع آخر أن خيانة سنو فلاور لها كانت «أصعب عليها بكثير من اتّخاذ زوجها خليّة»<sup>(٢٤)</sup>.

وسأذكر في ما يلي بعض الأمثلة التي صادفتني في سياق حياتي عن نساء احتلّت نساء موقع الآخر الهام "the significant Other" في حياتهنّ.

### أمثلة عايشتها

#### أم حسين وأميرة

في صيف ٢٠٠٥ عدت لزيارة أم حسين، البدويّة التي سبق أن رويت في نطاق بحث سابق قصة علاقتها بضرّتها أميرة<sup>(٢٥)</sup>، فوجدت أن زوجها أبا حسين طلق أميرة من سنوات وتزوّج بأخرى. وفي حديثي مع أم حسين لفت انتباهي الفرق الشاسع بين الطريقة التي كانت في السابق تتكلّم بها عن أميرة وبين عزوفها العفوي وسأمها من التحدّث عن ضرّتها الجديده سلمى. فعندما كنت أزورها في التسعينات كانت تنزع دائماً إلى ذكر أميرة، حتى وهي تتحسّر على نفسها لكونها «الثوب القديم» ولكون أميرة هي «الثوب الجديد». وقد روت لي مراراً كيف اختارت أميرة بنفسها من بين شقيقاتها الأربع، وكيف «هفّ لها قلبها».

أعدت قراءة مقابلاتي السابقة مع أم حسين وأكثر من زياراتي لها في وضعها الجديد فوجدت أنها كانت في السابق تذكر كل تفصيل عن أميرة، عن شكلها وسلوكها وعن عائلتها وحتى عن ثيابها والحلى التي تتزيّن بها. وجدت إعادات كثيرة لقصة زفاف أميرة وكيف طبخت هي -أم حسين- للضيوف ونظفت الخيمة التي أمضى فيها العروسان أول ليلة وعصرت لهم الفاكهة بنفسها، بل كيف بدّلت ثياب حدادها على ابنها الوحيد حسين كي يحضر سكان الربع العرس بعد أن رأت أنهم يتخلفون عنه مراعاة

Lisa See, *Snow Flower and the Secret Fan*, New York: Random House, 2005, p. 221 (٢٣)

Ibid. 229 (٢٤)

Najla Hamadeh, "Wives or Daughters: Structural Differences Between Bedouin and Urban (٢٥)

Lebanese Co-wives" In *Intimate Selving in Arab Families: Gender, Self, and identity*. Ed. Suad Joseph, New York: Syracuse University Press, 1999.

لحزنها. بالمقابل، كانت تغير الحديث كلما سألتها عن سلمى وكأنها تقول لي: «إن جمال المصطبة والعريشة تغطيها وروعة العصرية البقاعية وأنس الجلسة لا يليق إضاعتها في الكلام على أمر تافه مثل سلمى». أجابت عن إلحاحي في السؤال: «نعم طبخت لعرس أبي حسين وسلمى، وبكى الناس علي وأنا أطبخ». «قلت لأبي حسين لا يمكنني الانسجام مع سلمى هذه». «أميرة هي أمر آخر: أحببتها كثيراً، لكن أبا حسين طلقها لأنه لم يتفق معها، وأنا أربي ابنتها وأريد تعليمها حتى تصبح محامية».

### صديقة صباي لمياء

في عمر التسع سنوات تصادقت مع فتاة في المدرسة اسمها لمياء كانت تكبرني بأربع أو خمس سنوات. وقد شغفت بلمياء وتماهيت بها لدرجة جعلتني أتحوّل من تلميذة من الأوائل في الصف إلى أخرى لا تعير الدرس اهتماماً وتهرب من كثير من الحصص تشبهاً بلمياء التي كانت تلميذة خائبة. كنت أرقبها وهي ترتب ثيابها في خزانها في القسم الداخلي فأشعر وكأن ما أراه هو أروع الأعمال الفنية. ورغم تجذّر الصدق كقيمة رئيسة في تربيتي، لم أتورّع عن الكذب مدّعية أن والدي متزوج من أخرى غير أمي وأنها تسومني العذاب حتى أصور حياتي معقدة ورومنسية مثل حياتها. ولما أخبرتني أنها تنوي تغيير المدرسة سارعت أقنع والدي بأنني يجب أن أغير مدرستي وألتحق بالمدرسة التي قالت لي أنها ستلتحق بها<sup>(٢٦)</sup>.

وبعد فترة الدراسة بسنوات، علمت بأن لمياء تعيش مع زوجها وطفليها في قرية قريبة من حيث أقضي فصل الصيف مع زوجي وأطفالي. فسارعت أبحث عن رقم هاتفها وأزورها بلهفة كبيرة أثارت استغرابها. وبعد طلاقها اتّصلت بي مراراً عندما كانت أوضاعها تسوء، وكنت دائماً أبذل أقصى ما أستطيعه من أجلها. ولم أغفل عن رصد أسلوبها الشيق في رواية الوقائع، مع كثير من المبالغة التي بدت لي إبداعاً فنياً قل نظيره. ولم أغفل عن السحر الخاص في حركاتها وسكناتها، حتى بعد أن أنهكها المرض النفسي والجسدي. أما ما لفت انتباهي الآن إذ أتذكر تعلقي الشغوف بلمياء فهو أنني حاولت كثيراً أن أقنع والدي التي لا تعلم تحديداً تاريخ يوم ميلادها بأن ذلك التاريخ هو ١٧ أيلول، تاريخ ميلاد لمياء.

(٢٦) كان هذا سبب انتقالني من كلية البنات الأهلية إلى المدرسة الأميركية للبنات. والجدير بالذكر أن لمياء لم تذهب إلى تلك المدرسة التي أردت اللحاق بها إليها، بل تزوّجت في ذلك الصيف وهي لا تزال في عمر الخامسة عشرة أو السادسة عشرة.

## مريم وصبيحة

مريم وصبيحة، رحمهما الله، كانتا في سني شبابي عجوزين في العائلة جمعهما زواج ابنة مريم من ابن صبيحة. كانتا دائماً تتخاصمان ودائماً تنتقد احدهما الأخرى، في حضورها أو غيابها. ولكنهما لم تكونا تطيقان أن تبتعد واحدهما عن الأخرى. وكثيراً ما ضحكنا عندما كانت الواحدة منهما تذهب إلى الثانية كي «تلقنها درساً» أو لتقول لها ما نسيت أن تقوله في معركتهما الكلامية السابقة. فكان جميع أفراد العائلة يعلمون أن ما تلك إلا حجج تستخدمانها كي لا تبتعد واحدهما عن الأخرى أكثر من يوم أو بعض يوم. وعندما كسرت مريم وركها، لازمتها صبيحة يومياً، رغم أن معاركهما الكلامية لم تخب. ولما توفيت مريم ذبلت صبيحة ولحقت بها بعد فترة قصيرة.

## ناديا: امرأة «تغازل» النساء

عرفتها لحقية امتدت سنوات لارتدادنا النادي نفسه. فتلك السيدة، ولنسميها ناديا، أثارت هي وزوجها، ولنسميه فؤاد، الكثير من العجب بين عضوات النادي وبعض أعضائه الدقيقي الملاحظة. كانت ناديا تعجب كل مدة بامرأة من جميلات النادي. وكان إعجابها دائماً يسبق بأسابيع أو أيام شروع فؤاد بالتودد إلى المرأة التي كان يوقعها في حيرة كبيرة كون امرأة وزوجها- أي ناديا وفؤاد- «يغازلونها» في الوقت نفسه. ففؤاد كان زير نساء معروفاً. وفي مجتمع عربي تكثر فيه «الفحولة» أو التمظهر بها ولا يغيب عن مجتمعات طبقاته البورجوازية رجال مثل فؤاد لا يتركون الزوجات الجميلات لأزواجهن، كان وجود أمثال فؤاد ظاهرة طبيعية، لكن الغريب كان الدور الذي لعبته ناديا. ولعل سلوك ناديا في التحبب إلى بعض النساء وإعجابها الصريح والبريء بجمالهن ما كان ليستغرب كثيراً لولا ما كان يعقبه من مطاردة فؤاد للمرأة التي تتودد زوجته إليها. فلعل تعلقه بزوجه أو ضعف قدرته على المبادرة في القرار هما ما جعلاه ينتظر «رادار» زوجته ليبدله على «الجديرة» باهتمامه. لكن هذا ليس موضع الاهتمام هنا. فموضوعنا هو شعور النساء بعضهن حيال بعض، واللافت إذاً هو اهتمام ناديا الزائد بهؤلاء النسوة الجميلات.

## رباب: خاطفة الرجال أم محطمة قلوب النساء؟

وممن عرفت فيهن تركيزاً غير عادي على النساء في محيطهن زميلة الدراسة رباب، التي طالما أطلقنا عليها اسم «خاطفة الرجال»، حتى عندما كنا في سن المراهقة. فرباب الجميلة السكسي كانت «تساير» كل خطيب أو حبيب لصديقاتها حتى يلهيه

وعدها المضمّر له عن صاحبتّه. وقد تجاوز معها بعضهم. وكان بمجرد أن يتخلّى المسكين عن خطيبته أو حبيبته طامعاً في رباب الأجمال والأرشق، تنساه رباب وتقلع عن إبداء أي اهتمام به! وهي لا تزال على عادتها هذه مع التخفيف والتلطيف اللذين لا بدّ أن يأتيا مع العمر. وقد نجحت منذ ذلك الزمن حتى الآن في تسميم أو تهديم علاقات عدّة بين خاطبين وأزواج.

هذا المنحى في سلوكها يظهر كبير اهتمامها بمن حولها من النساء، بدليل أن غايتها دائماً تطالهنّ وإن بشكل سلبي يجعلها تسعى إلى كسر قلوبهنّ وإظهار تفوّقها عليهنّ بالأنوثة والإغراء، بينما لا تبدو أنها تعير كل هؤلاء الرجال كبير اهتمام. فلعلنا أخطأنا في إطلاق لقب «خاطفة الرجال» عليها، ولعلّ اللقب الأنسب هو «محطمة قلوب النساء»، فكأن لها عليهنّ ثأراً قديماً.

### تحليل هذه الظواهر من منظور تأثير عقدة الأوديب السلبية في عواطف النساء

إلى ماذا تشير كلّ هذه الأمثلة والوقائع الحياتية، بالنسبة إلى بنية الذات والعواطف النسائية؟ وكيف نفسّر هذه الظواهر ضمن تراث يضع الرجال محوراً لحيوات النساء، فتغدو «الضرّة مرّة» في المطلق ويكون التنافس على الرجل سائداً في علاقات النساء فيما بينهنّ؟ وكيف نتفهّم عاطفة تنبع من غير الحبّ الجنسي بعد أن أقنعنا التحليل النفسي أو كاد أن الأوديب، أي حب الأنثى لوالدها وحبّ الذكر لوالدته، هو ليس فقط أساس تكوين الشخصية المحدّدة للجنس بين ذكورة وأنوثة بل أيضاً نمط الحبّ الأكبر في حياة الأفراد؟

إن الانتباه لهذا الواقع الذي تعيشه الفتيات دون الفتيان في المراحل الأولى لبناء شخصياتهنّ قد يفسّر أهمية أميرة في حياة أم حسين العاطفية، رغم جميع الصيغ الاجتماعية التي تدعوها إلى اعتبارها عدوة مكروهة. وقد كان الأحرى بأم حسين وهي الزوجة الأولى لو كان الزوج محور علاقتها بضرّتها أن تحمل شعوراً أكثر سلبية تجاه أميرة التي كانت أول من شاركها في حب زوجها أو حوّل عنها ذلك الحب، أو جزءاً منه، ممّا تحمله تجاه سلمى التي أخذت منها ما كانت قد فقدته من قبل. لكن بدا لي من حديث أم حسين أن كرهها لسلمى ونفورها منها يرجعان، إلى حدّ بعيد، إلى كونها أخذت مكان أميرة وكانت السبب في غيابها عن حياة العائلة وعن أم حسين. بل إن الديناميكية والطموح اللذين أيقظهما هذا الحب في نفس أم حسين بحبث جعلها تحلم بتعليم ابنة أميرة لتغدو محامية، رغم بُعد هذا الهدف عن البيئة والإمكانات المتوافرة فيها، ورغم أن بنات أم حسين الثلاث لم يتعلّمن أبداً، يظهران أن هذا الحب لامرأة

أخرى يولد طاقة حيوية شبيهة بما جعله فرويد حكرًا على الليبيدو (الطاقة الإيروتیکیّة النازعة نحو اللذة).

أما حبي الكبير للمياء فتشير رغبتني في أن يكون مولد أمي في اليوم والشهر نفسيهما اللذين ولدت فيهما لمياء إلى ارتباطه بحبي الأول لأمي. وأجد الآن الكثير من أوجه الشبه بين منحي العلاقة بيني وبين أمي من ناحيه وبينني وبين لمياء من ناحية أخرى، سواء في نسق العطاء والتلقي أو في حدود الوضوح والفعاليّة اللتين لم تتمكّن كلا العلاقتين من تجاوزهما. والطاقة الفاعلة التي ولّدها عندي حبي للمياء، التي جعلتني أكذب كذبة كبرى وحملتني على إقناع والديّ بتغيير مدرستي وأنا في الحادية عشرة هي شبيهة بالطاقة التي ولّدها حب أم حسين لأميرة فجعلتها تقدم على ما هو شبه مستحيل في بيئتها البدويّة الفقيرة المعزولة.

وبالنسبة لمريم وصبيحة، فلا أعرف شيئاً عن والدتي العجوزين اللتين عايشتهما لسنين من طفولتي وشبابي، لكن معرفتي بالبيئة التي تربتاً فيها تجعلني لا أعجب من أن يكون حب والدتهما لهما اتخذ شكل التوبيخ واللوم أكثر من أي شكل آخر، خاصة أن التربية التقليديّة المحافظة في ذلك الزمن كثيراً ما ركّزت على أهميّة قصّ أجنحة النساء و«الركّ» عليهن حتى لا تنفرن من الدور الثانوي المتعب الذي يعدّه المجتمع لهنّ. فكان أهاليهنّ، وخاصة أمهاتهنّ، يعددنهنّ منذ الطفولة للقبول بهذا الدور عن طريق تحجيم نظرتهنّ إلى قدراتهنّ وتقليص توقّعاتهنّ بواسطة توبيخهنّ الدائم وانتقادهنّ لهنّ. كذلك فقد لاحظت في ذلك الزمن أن النساء في جنوب لبنان (مكان نشأة المرأتين وعيشهما معظم حياتهما) غالباً ما كنّ يعبرن عن الحبّ حتى الإيروتیکی منه بعدائيّة شبه لعوب. فأذكر أنني كلّما سمعت قرويّة جنوبيّة تدعي على رجل: «أكله تاكل شعر لحيته»، كنت أعلم أنه وقع موقعاً حسناً من نفسها. وقد يُسحب هذا الأسلوب في التعبير على أنواع أخرى من الحب، خاصة عندما ينبعث من رغبة عميقة الجذور في اللاوعي أو في تكوين الذات. إذاً فالخصام المتواصل بين مريم وصبيحة قد يكون أسلوبهما في التعبير عن الحب، وقد يكون في الوقت نفسه استعادة لنمطيّة كانت غالبية في حبيهما الأولين.

أما ناديا، فمما عرفته عنها أنها كانت متعلّقة كثيراً بوالدتها. وكانت والدتها من جميلات مدينة طرابلس المعروفات. فلا يبعد أن يؤدي بها شوقها لوالدتها المتوفّاة حديثاً إلى الميل عاطفياً لنساء جميلات، ما تلبث أن تنتقل بين واحدة منهنّ وأخرى لغياب الشخص المنشود وللتباين بين كلّ منهنّ وبين والدتها الغائبة. واللافت في الأمر أن ناديا لم تكن تفتن لسلوك زوجها، الذي قد لا أبالغ إن قلت أن جميع أعضاء النادي ما عدا ناديا لاحظوه وامتعصوا منه. فاهتمامها كان في موضع البحث عن أمر آخر،

يبدو أنه يعنيتها عاطفياً أكثر ممّا يعنيتها إخلاص زوجها لها.

وبخلاف ناديا، عُرف عن رباب أن علاقتها بوالدتها كانت مصدر معاناة وخيبة دائمين وأن والدتها عملت على إفساد علاقتها بوالدها، الذي حملت الفتاة له حباً عميقاً خاصة بعد فشلها في استمالة والدتها. فلعل الإحباط والألم اللذين سببتهما لها علاقتها هذه غير الشافية بوالدتها أدت إلى اقتصاصها من نساء أخريات كانت تسعى إلى تحطيم قلوبهنّ كما كسر قلبها نفور والدتها منها وعداؤها لها. بل لعلّها كانت تتأثر من إيذاء والدتها لها عن طريق تأثيرها في والدها بأن تفسد علاقات هؤلاء النسوة بمن أحبين من الرجال، وكأنها بذلك تعبّر عن رغبتها في أن تفسد علاقة والدتها بوالدها، فتتأثر لنفسها وتنتقل من موقع الضحية إلى موقع الجالدة، فتتحقق بذلك الرغبة في أن تستعيد أمها وتستبطنها عن طريق تقمّص الدور الذي كانت تلعبه إزاءها. كذلك تحقق الانتقال من الموقع المتلقي المؤذي نفسياً إلى موقع الفاعل، حيث اللذة والابتعاد عن المعاناة، كما يقول سيّد التحليل النفسي.

وهكذا نجد أن مرحلة ما قبل الأوديب هذه أو عقدة الأوديب السلبية قد توفّر تفسيراً مقبولاً ومقنعاً لكثير من الظواهر السائدة في حيوات النساء. فمثلاً قد تردّ محورية الصداقة مع بنات جنسهنّ في حيوات النساء إلى تأثير الحبّ الأول هذا في تكوينهنّ العاطفي، ذلك الحب الذي يصعب أن يشكّل مثلاً للحبّ الإيروتيكي ويصعب أن يشبّهه حبّ الجنس الآخر، فتبقى لدى الواحدة منهنّ حاجة ماسّة إلى إشباع عاطفي لا ترويه إلاّ صداقة نساء أخريات. وعشق كثير من المراهقات لمعلّماتهنّ في المدرسة يمكن أن يردّ إلى تقارب الأدوار بين الأم والمعلّمة يضاف إليه تيقّظ الأحاسيس الإيروتيكية في مرحلة المراهقة، ممّا يجعل الفتيات، حتى غير المثليات الميل، يشعرن بنوع من الانجذاب شبه الإيروتيكي نحو معلّماتهنّ. وفي رأيي وحسب ملاحظتي غير العلمية أن كلاً من الصداقة مع بنات جنسهنّ والتعلّق بمعلّماتهنّ في سن المراهقة هما خاصتان تظهران أكثر بكثير عند النساء ممّا تظهران عند الرجال. لكن لا بدّ من إجراء مسح علمي للتأكد من هذا.

#### خلاصة

إذاً فالفرضية التي أطرحها في هذه الدراسة هي أن النساء تتميّن برغبة عاطفية متأصلة تؤدي بهنّ إلى اختيار الموضوع العاطفي المركزي (the significant Other) من بين بنات جنسهنّ، وأن هذه العاطفة هي في الغالب ليست إيروتيكية، ولعلّ من تأثيرها نقص في العاطفة الإيروتيكية المنحى عند النساء، ورغبة قويّة في الصداقة،

حتى أثناء اختيار الحبيب أو الزوج. وهي فرضية لا تزال بحاجة إلى كثير من الدراسة، خاصة أنها تناقض نظريات راسخة حول خصائص الأنوثة، وتتحلل من المنحى المتبع في اعتبار الذكورة هي الأصل. إنها فرضية تعتبر المرأة كائناً قائماً بذاته تملك صفة أو صفات ليس لها ما يقابلها عند الرجل. وهي فرضية تعتبر المرأة، الكائن الذي كاد جاك لاكان أن يضعه في إطار الواقع غير المتناسق الذي ينسقه الخيال الفاعل لصاحب الرغبة (الرجل) قبل أن يستخدمه في تكوين رغبته بواسطة الرمز<sup>(٢٧)</sup>، كائناً قد يستحق بنوية جديدة خاصة به.

See Jacques Lacan, *Four Fundamental Principles*, Chapter I: "Excommunication" & Lacan (٢٧) *Seminaire, Livre II, Chapter VI, section 3.*

## البحث عن أنثى بين إمرأتين

مي جبران

"لا يوجد خطاب حياديّ أو كونيّ. ولا يتمكن أي متكلّم أن يعطي لغة خالية من الآثار" المورفولوجية " ... يولد المعنى مثل اللغة، من خلال الاختلاف الذي يؤدي الغاؤه الى إنتقاء المعنى"(1).

يتداخل الخطاب مع الفرد، يدخل اليه ويخرج من لاوعيه منه هو بالذات، اذا هو فريد دائم. يعبر عن ذاته المختلفة: السوية، المنحرفة، المريضة، المأزمية .

همة العيادي مع مرضاه، أن يضع إصبعه على السبب من خلال ما يقوله وما لا يقوله وكيف يقوله. إذا " هو " لغته ، خطابه. إذا تحليل اللغة طريقة ثمينة للمعرفة وللاستشراف أيضاً. هكذا تبدو لي لغة العلم ، والبحث قريبة من جنس المتكلّم والمفكر أي أنها ترضخ للجسد. أقول، أكتب، أفكر بهذا الجسد المختلف، الأنثوي أو الذكري. هناك حسب لوس، تكامل جسديّ لغويّ يخرج منه الخياليّ ممزقة، مقسّمة داخل مأزماها النفسي تفتش المرأة عن ذاتها، عن أنوثتها عن هويتها، عن جسدها من خلال "الأخر"/الذكر

"الأنثوي" هو "المكبوت"، هو "اللامقال" و" اللاواعي". هذا ما حاولت التركيز عليه سابقاً (2) ماذا أقصد هنا؟ تتربى الفتاة كي تعبر فقط من خلال القوانين والمعايير الذكورية في مجتمعاتنا. كيف ستعبر أو تقول النساء عن أنوثتهن وهنّ غير مقالات ولا واعيات مسألة تجعل المرأة في عالمنا، تهرب من داخلها وتحاول أن تعيش لمجتمعها و/أو لعائلتها \_ لعشيرتها وأن تنسى نفسها. لا! لا أعتقد ، لأنها تقوم بتسوية بين الداخل والخارج ﴿3﴾ أعني كل ما يطاول: النزوات والغرائز والرغبات والهومات أي كل ما لم تتمكن وما لم يُسمح لها في التعبير عنه: في الحب والإيروسية وهما أساس الأنثوي. إن كل ما هو مسموح لها في التعبير عنه يحاول بجميع الطرق إلغائها كأنثى و/ أو كإمرأة تعيش وتتواصل من خلال جسدها ، وأعني بهذا فكرها المرتبط بشكل غير منفصل عن جسدها ورغبتها الأنثوية .

كيف تبدو لنا من الخارج هذه المرأة اللبنانية التي تثير إهتمامي ، في عملي البحثي والعيادي؟ سأستعمل في بحثي هذا اللغة التي أعتبرها أقرب الى جسدي ، الى فكري، الى أنوثتي ، كي أتمكن من التواصل بشكلٍ وأسلوبٍ حر .

كيف يقترن الى حيواتهن عندما تُخضعهن للقوانين والمعايير الجامدة في الأبحاث الذكورية المرتبطة بالإيديولوجيا الوحيدة الموحدة أو الفكر الحيادي .

لا ! إنني رفضت كل هذه المفاهيم لأنه لا يوجد فكر "حيادي" إذاً ليس هناك من قول حيادي. يوجد أنثى تتكلم كما يوجد ذكر يتكلم. "الى أي مدى سأتمكن من خلال بحثي أن لا أعيد الخطاب الذكوري ، أن أفلت منه مع أنني مجبرة لكي أوصّل ما أريده ولأنه لا يوجد بعدُ نظام يمكنني أن أستعمله خارج هذا النظام الرمزي الأبوي السائد. عندما أتوجه اليكم لا يمكنني الا أن أرضخ للكلام واللغة السائدة المسيطرة سأحاول كإمرأة أن أفكر بشكل مغاير أي بجسد مختلف". ﴿٤﴾ هذا ما أردته عندما حاولت المحافظة على أقوال النساء ، عن أجسادهن وعن ذواتهن ، طبعاً قدر الإمكان. لا أريد وضع الأقنعة على حديثهن وتجميل ماكياجهن المزيف ، تركتهن يقلن ويعبرن كما يشأن عن أنوثتهن ، عن المحرم / والمحجب وعن الكامن الذي نهمله. هو كلامك المرتبط بجسدك الأنثوي .

" يوجد حيّر بين المرأة وذاتها وبينها وبين الأنثوي وهذا ما أسميه ما بين إمرأتين". ﴿٥﴾ لا يعني كلامي هذا نوعاً من التحامل أو الرفض المطلق للإيديولوجيا الذكورية بحد ذاتها، لكنني مللت من تحويل كل شيء بالفكر والإحساس والحب .... الى جنس واحد: الذكر. يوجد "ليبيدو" واحدة وهي ذكورية حسب فرويد في التكوين والتعبير ، يجعل منها متلقية ، مفعولاً بها. وهذا المنطق الفرويدي يلتمس إلغاء الأنثوي ، لأن الأنوثة "الغز" إذاً هي "مرعبة" كما إنها غير موجودة. نصل الى أنه يوجد تفكير واحد كما أن الليبيدو واحدة. الأنوثة هي "النقص" وهي "الخصاء" ، إذاً هي تفتقد لشيء يوجد عنده هو فقط. كيف بإمكانها أن تكون كاملة ومفكرة ومعبرة عن هذا القسم ، عن ذاتها الأنثوية ....؟ إنطلاقاً من الكبت ، والصدّ ، والقمع أود تفجير هذا الصمت اللاواعي حتى ولو كان خارج العيادة كي أتمكّن أولاً كإمرأة ، القول بلغتي العربية لغة أُمي / جسدي اللامقال / الأنثوي والجنسي. إن ما هو لذويّ يطول الفكريّ والجسديّ معاً ، فلماذا لا يعبر عنه؟ ممنوع ، لأنه يبقى في دواخلنا حتى ننفجر من كثرة الضبط والتستّر حتى لنكاد ننسى بأنه يوجد عندنا فكر أو رأي أو إحساس أو رغبة تختلف عن السائد ، وهي ماتت قبل أن تولد .

إن همي هو السماع لهنّ ، لأقوالهن وأجسادهن ولمعرفة كيف يعشن أنوثتهن في هذا العالم / المجتمع الذي لا يسمح لهنّ بتحقيق هذه الأنوثة. لا ! لا ! يقول البعض منهن: أنت تخطئين لماذا تعممين هذه الأفكار؟ يوجد نساء كثيرات في عالمنا العربي وفي لبنان قد توصلن الى أن يعشن ويعبّرن بطريقة مختلفة في المجتمع ، لأنهن وَعَيْن ذواتهن. لا أفهم هذا الكلام لأنني لست مقتنعة ، ولأن ما المسه من الداخل عندما أغوص في جوانبتهن في خلال السماع لمشاكلهن قبل الزواج وبعده هو مختلف تماماً .

سنحاول سوياً أن نسمع ، أن نرى ماذا تقول وكيف يعبرّ البعض منهن عن حيواتهن. أشعر بأنني مقسّمة / موحدة في آن معاً لأنني مضطرة أن أنسى حالي ، أنا كإمرأة ، وأن أكون في داخل الخطاب حاضرة في الزمان والمكان خلال هذا التواصل معهن لكن وجودي الآن لا يلغي السابق وما سيلج.

أنا هنا الآن مليئة بالماضي والمستقبل وبقصتي المرتبطة بالمعيش الذي لم ولن يفارقني في خلال لقاءاتي مع الأنثى أو المرأة أو الأم ..

أستأذن كل أنثى/ إمرأة ، لأنني سأحاول إيصال أنوثتها وحياتها للآخر المجتمع/ الذكر . " أنا هنا ، لأنني هربت من عالمي ، من محيطي الذي يكاد يقتلني من كثرة ما هو قمعي وتقليدي ... أوف تعبت ... أريد التنقّس بعيداً عنهم ، كي أكون حرة" صرخت أدا ، " أن أخرج ... أن أصاحب ... لست أدري الى أي مدى سأتمكن من الشعور بهذه الحرية. أنا التي تربت بقساوة ... كان هدفي النجاح بالبيكالوريا كي أنزل الى بيروت على الجامعة. كان همّي الوحيد هو اللقاء بالشباب وليس الدرس والإجازة ... " .

كيف سنتعرّف أكثر فأكثر على هذا العالم الأنثوي من خلال الحياة اليومية: العائلة ، الزواج ، الدين ، الجنس الآخر ، الجسد ... الموضة ...؟ سنستمع الى خطاب النساء الذي سيختلف: سيكون أحياناً مبنياً أو عفويّاً وهذا يتعلّق بالقدرة على القول عن الذات / اللامقال. ﴿٦﴾ نحن منغمسات في خضمّ بحر ذكوري ولا نعرف كيف نخرج والمخيف هو أننا نبرر ولا نعد نعرف كيف يمكننا التغيير .

" إنهم يلعبون لعبة. يلعبون وكأنهم لا يلعبون. إذا حاولت إظهار معرفتي بهذه اللعبة ، سأعاقب لأنني أكون قد كسرت المعايير والقواعد .

يجب أن العب لعبتهم ، التي هي عدم رؤية هذه اللعبة " (7) .

سأغوص بهذه اللعبة ، بهذه اللقاءات معهن. توقفت عند بعض هذه المواضيع ، الكلمات خلال هذه الرحلة في ذواتهن. إنبهرت أحياناً بالألوان ، أثارتي التعابير الصادقة المكتوبة تارة في المجال الضيق أعني الداخل وتارةً أخرى في الخارج أي المجتمع . بين هذين العالمين ، سأحاول أن أفقت ، أن أكسر ، أن أحلل قولاً وهو غالباً غير مُقال إنما معبر عنه ، أو بالعكس مخفي ، يحجب عني الواقع. هكذا تختبئ نسائي من خلال كلماتها ، ولذا يبدو الخطاب مثل السيفساء أحياناً . نسائي عديدات ، غصت معهن منذ سنين وما زلت ، أتابع البعض منهن ، أتصت عليهن ، على حالي من خلال اللغة والكلام والجسد. ما هي أهم المتون والمواضيع التي أثارتي وحاولت إستخراجها من أحاديثهن عن أنوثتهن؟ ﴿٨﴾

### ماذا قيل عن الأسرة ؟

لنلعب لعبة الأسرة السعيدة كما يقال " إذا كان الأنا مرتبطاً بتكامل الأسرة.. نشعر بالأمان إذا تخيلنا الإنخراط البنيوي الأسري عند الآخرين... تتركز هوية كلّ انسان إذن على العائلة المقسّمة والتي هي موجودة عند الآخرين ، وهي تؤكد بأنهم من عائلة واحدة" (9). تسجّل في داخلنا وعلى أجسادنا كنساء ولا تتركنا صور الآباء وفتات من أجسادهم المحبوبة أو المرفوضة أو المكروهة، وهذا ما نسمّيه ب الأنا الأعلى. فالأسرة هي غالباً حامية لأنها تخلق جواً من الحب والطمأنينة والعاطفة بين الأهل والإخوة، لكنها تبدو عند البعض الآخر، قاسية، سلطوية. ماذا قلن؟ " أهلي متفهمين ، أعتقد بأنهم ... : (سكوت) مناح". في مكان آخر: "لا يوجد حوار بيننا دائماً ... أشعر بمشاكل نفسية .": (ج. ٢٥ سنة) . "لا أشكو من تربيتي التي كانت متحررة. خرجت مع شباب بشكل طبيعي ... كانوا يأتون الى البيت ... أبي لا يعلم بكل هذا لا يوجد أي حوار معه ...": (ن. ٢٢ سنة ) . كانت الإجابات متنوعة بين الرضوخ حتى الوصول الى مثلثة الأهل وكأن الأسرة دائماً على حق. يوجد أقلية رفضت التربية. " أبي قاسي جداً ، جداً حتى انه في هذه الأيام يرفض أن أذهب الى المدرسة المختلطة. كان دائماً يقول لماما يجب أن تتحجب لأنها مغرية بنتك ، وماما تؤجل وتؤجل ... أرفض كل طريقتهم بتربيتي. ... (أ. ٢١ سنة)

" ربتني أمي بشكل صحيح وحاولت أن توجهني نحو الجيد وأن تفهمني معنى الخير والشر. ... ضحّت الكثير لنا ... معهم كل الحق ، الآن فهمت قيمة أهلي ، وصرت أحترمهم أكثر ... (ليلي ٢٢ سنة )

أما فيما يتعلق بالسلطة بين الأم والأب تقول: (ر. ٢١ سنة )  
" أمي عصبية وسلطوية ، تتصرف معنا بعدوانية ... أكره هذا الجو ، وأفضل أن يكون أبي هو السلطوي حتى تتمكن هي من سماعي ... نحن ١٠ أخوة ، أفهمها لكن أشعر بأنها تتبذني ... بينما: (ب. ٢٧ سنة) مزعوجة:" ... أبي هو الذي يقرر دون أن يأخذ برأي أمي ... يتركها بالبيت ويدور ، أشعر أنها تعيسة لم تعش أبداً كما تريد ... "  
هكذا لمست بأن الأسرة عندنا تلعب دوراً هاماً فهي تبسطُ سلطتها وتملكها على الأولاد لأنها غالباً ما تحقق ذاتها من خلالهم:" رفعتِ إسم العائلة لأنك بنت شاطرة ومهذبة ، نجاحك يشرفنا ، وأنا يا بابا فخور بك ... اشعر بأنني غير موجودة لأنه تملكني بحبه لي ، ولا يترك لي المجال للتفرد برأيي وخاصة التعبير عن رغباتي ... عندما أحببت هذا الشاب قال لي: إنه لا يشرف عائلتنا من هم أهله؟ ... (هدى. ٢٣ سنة)، الأب هو الحامي الذي يجعل الأم ملكه من خلال جسدها ورغبتها، تماماً كملكاته وأولاده" يفرض النظام البطريركي على أن مقام الأم والأولاد ودورهم يرتبطان في جميع الأحوال بالذكر" (10). أقول بأن المصاحبة الفردية هنا تختلط بمصلحة الأسرة والعائلة فالمجتمع.

#### الفروقات بين الجنسين

كيف يتكلمن عن هذا الموضوع؟ يعبرن عن التربية بين البنت والصبي التي هي متميزة هناك تحيّر واضح ، لأن الأهل يسمحون للصبي الخروج بالليل ويمنعون الفتاة ... أجابتي: (ج. ٢٨ سنة) وهي غاضبة إنما راضخة للواقع كما تقول: " لم يتمكنوا أهلي من معاملتي مثل أخي مهما حاولوا ، مع اننا عشنا فترة طويلة في باريس. أعتقد بأن البنت تحمل عبء هذه التفرقة بين الجنسين. يجب أن تبقى في الداخل لأن أقوال الجيران والمجتمع مزعجة وتدمر الصيت. بيني وبينه ... فرق كبير لأنه يعود متأخراً لكن أنا يصرخ أبي عليّ إذا رجعت مرة متأخرة .. (ه. ٢٩ سنة )

بينما: (ريان 22 سنة) تغار من أخيها ، منزعة ، لكنها متناقضة تقول" لا يجب أن تكون المرأة مساوية للرجل لأنها ستخسر كل شيء ... هناك فروقات واضحة. حتى أمي تحب الصبيان أكثر. تدلل أخي الصغير: (١٨ سنة) ، إشترت له سيارة وأنا حتى الآن لم أتعلم السواعة ،

حتى صار يريد التسلّط عليّ لأنه صبي ... كنت أحب أدرس بالجامعة الأميركية قالت أمي أتركي هذا للصبيان. سادخل الجامعة اللبنانية كي أرتاح "

" طبعاً الزواج للبنات مهم وبالنسبة للصبي يهتم أبي بمهنته ومستقبله. ... يزعجني جداً هذا التمايز لماذا أنا مختلفة عن الصبي؟ : (و. ٤٥ )

بينما : (يلي ٢٠ سنة) " لا يوجد أي فرق بيني وبين أخي نحن الإثنيين تغننا ودلّونا .

لم أشعر بأي غيرة ، كنت دائماً مرتاحة وراضية. "

" هناك فرق شاسع بين تربية البنات والصبي في لبنان ماما تقول البنات تدرس حتى صف البريفيه وهذا يكفيها. : (ج. ٢٣ )

### الجنس الآخر:

كيف عبّرن عن العلاقة معه؟ عبّرت الأكثرية عن الإنزعاج والخوف والهروب والحياء" يوجد إحباط في العلاقات بين الجنسين لأنها علاقات معقدة "

" تشعر الفتاة بخوف أن تقوم بعلاقة مع الشاب وبإنزعاج من ناحية ثانية إذا لم تقبل ، لأنه ينعته بالمختلفة وفي حال قبلت ، يعتبرها سهلة المنال. أنا أخاف أن أفقد عذريتي لأنه لم يعد يتزوجني إذا قبلت : (ن. ٢٢ )

تتكلم جنان وهي مليكة : (٢٣ سنة) " علاقتي مع الشباب : (سكوت) لا أعرف ، هي فقط صداقة. عندما دخلت الجامعة كنت أشعر بإنزعاج ، وتلبك لأنني درست في مدرسة غير مختلطة ولم أعود على الشباب. أنا لست مهياًة حتى لإقامة علاقة صداقة معهم. تعذبت فترة طويلة ، حتى أصبحت منطوية على نفسي ، ابتعد عن الكل. كنت أشعر بضغط كبير ، لأنه كان يجب عليّ أن اظهر بأنني أقوم بعلاقة مع شاب وأنا لم أتمكن لأنني لست مهياًة بعد. "

ركّزت الأكثرية على ثلاثة مواضيع وهي الجنس ، واللمس والكلام. " لا أحب أن أبقى وحدي مع شاب ، لأنهم أصبحوا عدوانيون ويغتصبون. هذه حسب ما أعتقد آثار الحرب. : (ل. ٢٢ )

" عندما أشعر بحاجة الى أن أقوم بعلاقة معه ، لا أتردد. وين المشكلة؟ ... : (ر. ٢٥ )

" كنت أعلم بأن سلاحي الوحيد هو الكلام. أتكلّم لكي أهرب من الجنس ولكي أخبئ ضعفي. أحب المتقنين لأن عقلي وجسدي واحد ... انهم لا يفهمون بأن المرأة تحب الكلام في الجنس وفي الحب. أنا لست مثل الرجال أفترق بين الحب والجنس. اشعر باللذة ، إنما بشكل مختلف. الكلام مهم جداً" : (ه. ٣٧ )

" قمت بعلاقة خلال ٥ سنوات مع شاب وانتهت لأنني رفضت الجنس معه. الكل يحترمني. إذا لم يلمس البنت يحترمها" : (س. ٢٢)

هكذا تقول الفتيات اللبنانيات عامة وتركز على الإحترام. تربي الفتاة / الطفلة على الخوف والإنتباه منذ الأيام الأولى الى كل ما يتعلّق بأعضائها التناسلية .

" لا تضعي يدك هنا ، عيب، وسخ ... " هكذا تردد الأم لإبنتها وكأنها لا تملك أي عضو جنسي كما تقول سيمون دي بوفوار. تخجل الأم من بعض الألفاظ التي تتعلّق بجسدها كأنثى دم \_ عادة سرية \_ بكاره \_ جنس ...

### التربية الجنسية

كيف تتلقين المعرفة عن الأعضاء التناسلية، عن الدورة الشهرية .  
تصبح مراهقة وهي تجهل كل شيء عن تغيرات جسدها.

" لم تتكلم أُمي أبداً معي بهذه الأمور الجنسية. كانت عكس بابا، باردة ، تقرف وتزعج وهي التي أثرت عليّ كي أفر من الجنس ... عشت بجو يعتبر كل ما هو جنسي وسخ وملوث ... أنا كان عندي حشوية لمعرفة ، كيف يتم الزواج. بالفعل علمت لما بلغت ١٨ سنة. لم أذكر أبداً في أي سن بدأت العادة الشهرية لأن هذه المرحلة لم تؤثر فيّ. غريب لماذا؟ : (هبه ٢٧ سنة ) .

" لم أتكلّم أبداً مع أهلي بالجنس اسأل ماما أحياناً ، لا تجيبني. أعتقد بأنها تستحي ... لم تشرح لي أي شيء عن البلوغ ...

طبعاً تفاجأت بالدم ولم أفهم ماذا يجري لي ... : (ج. ٢٥ سنة)

أعتقد بأن التربية الجنسية مازالت تابو ... : (تضحك) لا نتكلّم أبداً بهذا الموضوع عندنا. فهمت بعض الأمور من المدرسة ، وكيف تتم العملية الجنسية. تقول ماما ، ستعرفين ، عندما تتزوجين ، لماذا مستعجلة؟ لا تخرجي مع الشباب ، من الأفضل أن تكوني مع مجموعة. بتعرفي ليش نزل منك دم ، لأنك تعذبيني ...

إنه وسخ وهو عاطل ...." : (ن. ٢٢ سنة )

" ممنوع على البنت أن تحب وتقوم بعلاقات جنسية قبل الزواج. أنت لست بحاجة للمعرفة الجنسية ، هكذا تقول لي أُمي. لم أفهم يوماً معنى البلوغ ، والدم ... عندما رأيت خفت ... خفت كثيراً عندما شفت أحمر وفهمت بأنه دم ملوث. عندها قالت أُمي لا تخبري أحداً بالدم ... عيب. لم أفهم أي شيء عن الدورة الشهرية. لكن عندما قرأت فهمت بأنني يجب أن لا أتعرّض لأي تجربة : (سكوت) ... : (أ. ٢١ سنة )

المعرفة هي أساس القوة والسيطرة على الذات، كما أنها أساس التوازن النفسي في توفير العلاقة مع الآخر. " إن التفكير بالجنس الإنساني يعني التفكير بإنسان في كليته، والتربية الجنسية هي تربية الإنسان" (11).

### العلاقة مع الجسد

كيف تراها؟ ما هي صورة الجسد؟ تكلمت الغالبية عن المظهر والشكل :  
" أهتم به كي لا أنصح ... أنا مرتاحة بجسدي. البس ثياب تظهره : (تضحك) رغم أنني في فترة المراهقة كنت مزعوجة من ثديي. الآن تغيرت لأنني أحب الإستعراض وخاصة على البحر ... لا أستحي. أنظر اليه عارياً في المرأة. ... : (ن. ٢٢ سنة )  
" أنا لا أحب الرياضة : (سكوت) لا أحب النصيحة ، يشغلني ليسي. أحب الأولاد لكنني أخاف أن يتشوه جسدي. " تبدو: (جين ٢٨ سنة) جامدة.  
" لا أحب تضييع وقتي بالإهتمام به ، لا أقف أمام المرأة وقتاً طويلاً كما تفعل الغالبية لتغري الرجال ... لا أحب الرقص وخاصة لأن صديقي هو من المثقفين لا يحب هذه الحركات. : (رولى ٢٥ سنة) .

لنسمع : (هبة ٢٧ سنة) تتكلم عن جسدها الذي دارت المقابلة كلها حوله. كانت تتكلم أحياناً عنه بلذة وحسية وتارةً أخرى ترفضه. خلال ٣٥ دقيقة عبرت بشغف وعشق عن صورة جسدها. " كنت معقدة منه لأنني مشعرة ... فترة المراهقة ، أصبحت آكل بشكل وحشي حتى توصلت الى حالة" البوليميا" أنصح ثم أعمل ريجيم كي أضعف وبعدها أعود. عندما بلغت عمر ١٨ سنة رفضت جسدي ، كنت مقرفة صرت " أنوراكسيك" أشبه الصبيان. رغبتني كانت دائماً أن أكون صبيياً يركض بحرية دون أن يراقب. كان كل جسمي مشعر ، كنت قبيحة جداً. ... أنا أعلم بأنني حتى الآن هكذا ولا أحد ينظر الي. كنت أنفرج على المجلات وأتمنى أن أكون مثل النساء الأخريات جميلة. رفضت جسدي لفترة طويلة ... الشكل مهم جداً بالنسبة لي ... "

كنت أترقب علاقتها بجسدها من خلال شكلها ، خطابها المباشر عندما تتكلم عن "الجنس" .  
تُرَبَّى الفتاة في بلادنا على "إنكار جسدها"، وهذا ما لمسته من خلال البحث والمقابلات التي أجريتها معهن. إذا اعتبرنا بأن الجسد يمثل "الأنا" كما يقول شيلدر (12)

ويبنى الجسد من خلال حاجات الفرد وتجربته العاطفية وانفعالاته، وتنمو صورة الجسد وتتغذى وتغتني عبر التجارب المتعددة التي تتأثر بالعلاقة مع العالم والمحيط الخارجي. هناك علاقة وثيقة

بين صورة الجسد والأنا وبين الأنا والعالم وتتغير هذه الصورة طبقاً للصيرورة النفسية وحيث " الجسد هو تعبير دائم عن الأنا كما عن الشخصية وهو أيضاً في العالم" (13).

#### العادة السرية أو الأنا ملذية (14)

لم تتجرأ أي امرأة ولا أي فتاة من الكلام عن هذا الموضوع بشكل تلقائي إلا بعدما سألتهن وجاءت إجابتهن سلبية. تلبكت وانزعجت الغالبية منهن وحاولت التهرب من الإجابة. لقد أشار البعض منهن مع إنزعاج ظاهر عليهن كمن ارتكب جرماً يجلعلننا نتساءل: ألهذا الحد يرفضن أجسادهن؟  
" اشعر بأنني باردة : (بصوت خافت) مع إنني كنت أمارس العادة السرية ، تألمت في البداية ... كنت لا أفهم ماذا أفعل ... اشعر براحة بعدها وأعتبر بأنني بحاجة إليها. كنت أشد على فخذي ، ثم اكتشفت تدريجياً يدي ... : (نهاد ٢٤ سنة )

" جسدي أجمل من جسد الرجل ... الأنوثة أحلى. نشعر بالنشوة بشكل مختلف عنه. لم أتمكن من لمس جسدي قبل أن أحس فيه ، اكتشفت تدريجياً الجنس ، أشعر براحة واسترخاء بعد ممارسة الجنس. التحرر هو اكتشاف الجسد." : (ن. ٢٢ سنة )

" كنت أعرف بأنه غير طبيعي أن أمارسها ، كنت أبكي عندما أنتهي ... لا أدري أين قرأت بأنني اذا مارستها " للعادة السرية" بشكل متكرر او بإفراط سافقد عذريتي. ...  
اكتشفت جسدي من خلالها. حالياً أشعر بجسدي معه بشكل قوي ، اصل في نفس الوقت معه ... أتمنى لو أحبل ... : (ب. ٢٧ سنة )

" أكره هذا ، لم أمارس هذه العادات ، ولم أفكر فيها. عندما أعرف بأن الرجل يمارس العادة السرية أتعجب ... : (دانيا ٢٢ سنة )

" إنه موضوع حميم، لا أشعر بأي شيء ... أنا في فترة المراهقة شعرت بأشياء لكن لم أمارسها ، كنت أتلمس جسدي فقط. أحاول الآن لأن رفاقي يمارسونها عندما لا يمارسون الجنس مع شاب. أنا لم أتمكن من أن أعمل هذه الأشياء. : (ساميا ٢٢ سنة )

" انني أقرف الآن من ممارستها ، عندما كنت في عمر المراهقة ١٣ سنة لمست جسدي لكن إنزعجت ، انه أمر رهيب لم أتمكن ، انني أقرف. : (ليلي ٢٢ سنة )

#### الموضة

كيف تتكلم عن الموضوع؟ كيف تعبر عن ذاتها وجسدها؟" هناك تعويض يمنحها لذة تساوي العلاقة الجنسية المكبوتة والمكبوحة" (15). إنه استعراض الجسد باللباس! إنه حل غير مباشر وتسام يريح

المرأة لأنه من خلال الهتك \* أي الإستعراض ، تتمكن الأنثى من جذب نظر الجنس الآخر / الرجل ، وعندما تستعرض جسدها من خلال الموضة: (اللباس ، التبرج ، الشعر.. الخ).  
أن "تري وتُرى" تعبير خاص للغلمية والإيروسية لأن الأساس النزوي للسلوك يقوم على اتباع الموضه وهو يشبه السلوك الجنسي. وتبدو غريزة" النظار " \* أي رؤية الغير وغيرية الرؤية أساسية في مجال الموضة. يمكننا اعتبار صورة الجسد وكأنها بشكل من الأشكال" مجموعة لصور أجساد الجماعة".  
(16)

" ان لبس القصير ، والمكشوف عن الصدر والظهر ، نكون على الموضة ... لكن الله لا يقبل هذا ، يحب أن نتحجّب. أنا مثلي الأعلى هو أن اشبه أختي لأنها شقراء مثل الأوروبيات. تعجبني المرأة المسيحية لأنها حديثة ، تعرف كيف تلبس وتظهر مفاتها كي تبدو أصغر ...  
(ر. ٢١ سنة )

" بابا على الموضة ، لأنه يسمح لنا أن نلبس قصير ومكشوف. حتى التدخين ، انه لا يمانع كل هذه الأمور حتى الذهاب الى البحر ... : (جين. ٢٨ سنة )

" الموضة هو أن أكون لاثقة بشكلي. مجتمعنا يعطي أهمية كبرى للمظاهر ...  
كنت أشتري مجلات ..... أما الآن تغيرت ، أريد أن أعجب الشاب كما أنا... : (رولى ٢٥ سنة )

" دخلت الجامعة لأنها الموضة عند البنات ، لا يهمني العلم ، بل رغبتى هي أن أكون مثل الباقيات ، وأن أعرض ليسي الحلو ... : (ر. 21 )  
إذا إعتبرنا بأن الموضة لغة الجسد ، فلا يمكننا الحديث عنها ، لأنها للنظر وفي لبنان لها معنى ، إنها تشير الى الحداثة أو التخلف: " أنظروا اليها دائماً على الموضة أما هي لا ذوق لديها لأنها تبدو بعيدة عن الدارج ... "

"ان وصف اللباس هو فعل إجتماعي ... إنه عنصر من ثقافة R.Barthe يقول  
المجتمع بشكل أكيد" (17)

" أحب التبرج ، لا أرفض أنوثتي حتى ولو كنت مناضلة ... الموضة الآن في الجامعة هي أن ألبس " جينز " : (نهاد ٢٤ سنة )

" أحب لبس ثياب تظهر مفاتن جسدي ، لأنني أحب لفت النظر بشكلي ، لكن التدخين مثلاً لا أحبه لأنه على الموضة في الجامعة ... : (ن. ٢٢ سنة )

## ماذا يقلن عن الزواج؟

هل هو تحقيق للأثوثة أم...؟ ظهر تناقض فاضح بينهن وحتى عند الواحدة ...  
" إنه هدف المرأة اللبنانية ... لا أريد الزواج ، لا أريد حماية الرجل لي ، ولا أخاف أن أبقى  
عانس ... إنما الزواج مهم ، أحب الأولاد ... : (ب. ٢٧ سنة )  
" يخيفني ، لأنه يربطني الى الأبد .. لم أرفضه بشكل قاطع مثل السابق " : (و. ٣٥ سنة)  
هناك خوف عند البعض كما ظهر من الإرتباط الأبدي وعلى الأخص عند المسيحيات لأن الطلاق  
ممنوع" .

" أعتقد بأن الزواج هو أهم شيء بالنسبة للبنات ... تخرج ، تصاحب وأخرتها يجب أن تتزوج ،  
إن هدفها وقدرها هو الزواج الذي يعطيها الأمان ويحميها ويهتم بها .  
(نارا. ٢٢)

صرخت : (ر. ٢١) بكل سرور وحماس " برفو ! ستتزوجين لماذا تأتين الى الجامعة وتكملين علمك؟  
أمي ضد تقول أبقى في البيت لأنك بحاجة لتعلم الطبخ ، تزوجت أختك ولم تعرف كيف تقلي  
بيضة. يجب أن تبقي داخل البيت بعد زواجك. "

## الحياة الجنسية

طبعاً حاولت جميع النساء إخفاء الموضوع الجنسي والتهرب من الكلام عنه خلال المقابلات.  
ولقد لمست العكس تماماً عندما سألتهن بشكل مباشر عن الحياة الجنسية وكيفية العيش من خلالها؟  
بعضهن إنزعج: " هذه أمور خاصة لا أريد أن أفصح عنها ، إنني أخاف في مجتمعنا " . تبدو  
المواقف والمفاهيم مصبوغة بالقلق واخوف والعيب...  
و الأخريات على العكس تماماً كن ينتظرن هذه اللحظة كي يعبرن من دون توقف عن علاقاتهن  
ومخاوفهن وآرائهن مع محاولة العقلنة أحياناً وهي وسيلة دفاعية للهروب من  
الشعور بالذنب. كيف سيدخلن إذن الحياة الزوجية وهنّ تجهلن معنى العلاقة النفسية الجنسية بين  
الرجل والمرأة؟

لأنهنّ لم يتتقنن جنسياً بالطبع! .

وتعيش البنات في مجتمع يكبت ويحرم عليها أي علاقة قبل الزواج ، فماذا تفعل؟ وكيف ستعيش  
جسدها بعد الزواج مع الرجل خلال الجماع؟ كيف ستشعر باللذة وتتوصل الى أن تتحرر بجسدها  
جنسياً وهو المحروم من اللذة؟

لقد تعودت على كبت الجنسية حتى عمر متقدّم قد يصل أحياناً الى الـ 35 سنة، وترتبت على أن الجنس مقرف وحرام وعيب ومرفوض وأمر غير طبيعي!

ولقد فضحت الغالبية نفسها من خلال كلمة أو حركة، صحيح بأن اللقاء يقوم على الخطاب إنما هناك دور أساسي للتعبير الجسدية التي كنت أقرأها. وبالرغم من كل هذا يوجد بعض التحفظ على استعمال كلمات جنسية. لنسمع ما تقوله: (ج. ٢٥ سنة) بصوت خافت دون أن تتمكن لفظ كلمة جنس، " أحب شخص لكن ما تتكلمين عنه، كلا أبدأ... : (سكوت) لم أقم بأي علاقة أبدأ... العلاقة مع الرجل هي صداقة أقبلها، لا تزعجني، أرى الأشياء بشكل علمي. ستقولين بأنني غير طبيعية في هذا الزمن، بحب أعرف من حيث الحشوية، عندما فهمت، لم أعد أهتم للأمر، لأن العلاقة قبل الزواج غير مطروحة بالنسبة لي، لأن المجتمع لا يتقبلها... "

" أنا ضد البنت يلي بنتام مع الشاب قبل الزواج. أنا أتركها لليلة زفافي، أحلى... أنتظر هذه الليلة... أحب هذه الشغلة بفارغ الصبر...": (ر. ٢١ سنة)

بينما هناك أخريات يتكلمن عن تجاربهن السطحية في هذا المجال.

"أنا لن أعيش حياة جنسية كاملة، قمت بمداعبات يلي بسمو" فليرت" صحيح بأن العذرية لا تعنيني إنما لم أتمكن من مواجهة هذا المجتمع... حبيبت شاب وعملت معه أشياء سطحية.: (رولى ٢٥ سنة)

" إن الجنس شيء مقرف لا يغريني أبداً \_ لا أخاف إنما أرفض...": (ه. ٢٨ سنة)

" كنت حب كثير مارس الجنس، لكن هو لم يقبل بشكل كلي، يريدني أن أبقى عذراء...": (ب. ٢٧ سنة)

ماذا تقول هبة عن حياتها الجنسية؟" كان زوجي حنوناً وقال لي لا تخافي: (بصوت خافت) سينزل منك دم قليل، لقد عوّض لي كل مفاهيمي الخاطئة عن الجنس التي زرعتها أُمِّي بذهني... الآن بعد طلاقني منه، أفقد هذه النواحي مع حبيبي. أشعر بنقص... الحنان: (هبة ٢٧ سنة)

(وردة، مناضلة ٣٥ سنة). كانت تتهرب ولا تتجرأ في التعبير عن حياتها الخاصة، إنما تقول بأنها متحررة وهي مع تحرير المرأة. " تألمت في البداية ولأول مرة لأنني بقيت حتى عمر ٣٠ لم أقوم بعلاقة جنسية. أعيش معه بدون زواج لكن كأنني متزوجة. أنا ضد أن تكون العلاقة سطحية، أعني مداعبات أشعر بالإحباط والكذب. أنا مع العلاقات الجنسية كاملة قبل الزواج... "

لنسمع ما تبوح به : (ناديا ٢٢ سنة) عن تجاربها الجنسية ويكل حرية: " أول مرة قبلت بالعلاقة كان عمري ١٤ سنة لكن نمت مع شاب وقبلني في عمر ١٨ . في البداية كنت أنتبه أن لا أفقد عذريتي التي كانت أتمن شيء عندي وكان يخيفني هذا الموضوع ... لازم البنات تتخلص من القيل والقال وأن تكتشف ذاتها ، لكن مجتمعنا قاسي وهو الذي يمنعها. ... أنا حاولت أتخلص عندما كان عمري ٢٠ سنة وعشت مع شاب وتعرفت على كثر غيره. ... ساعدتني الحرب بأن أمارس الحب بحرية تامة. ... منذ الطفولة كنت على إحتكاك بالشباب داخل البيت ... كنت أذهب أيضاً الى المخيمات مع شباب ... أول مرة نمت مع صديق في الكشاف وكنت على علاقة طبيعية معهم ، نتمشى ، نرقص ، نتناقش ... كنت اشعر براحة : (تخفيض صوتها) مع الصبيان أكثر من البنات هذا ما ساعدني بأن أقبل أن أنام معهم في عمر ١٨ سنة ... لم أفكر أبداً بالزواج. عندما أخرج مع شاب ... فقدت عذريتي في ١٩ ... أفضل أن تكون العاطفة والجنس ... لكن عندما أكون محبطة. ولم أخرج مع شاب فترة طويلة أقبل بالجنس بدون حب. لن أنزعج من العلاقة الجنسية حتى إنني جربت مع أربع شباب في نفس الوقت. هل أنا مريضة؟ يثيرني منظر المرأة والرجل ... أول مرة شعرت بالنشوة كان عمري ١٩ سنة .

(صمت طويل) لا فرق عندي باللذة من البظر أو المهبل ... : (تضحك) لا يهمني أن أقوم بمرات عديدات ، يكفيني مرة كي أشعر بالراحة. لم أكتشف جسمي الا مع الجنس الآخر ، لم ألمس جسدي من قبل. لم أمارس أبداً " العادة السرية" : (الإستمناء) .

.... بالنسبة لي التحرر الجنسي للمرأة هو اساسي ... يجب أن تتخلص المرأة اللبنانية من هذا المفهوم على أنها تابعة ، متلقية ، كل شيء هنا : (تضع يدها على رأسها) هذه هي الصورة التي تنتظر المرأة. "

لماذا البعض يرفض الزواج؟ أخوفاً من الجنس؟ أم ...؟

" .... كنت عم أتسلى ، زواج لأ. ما بدني إتزوج ، سوف أقطع علاقتي به ... لكن أعتقد بأنني مغرمة" بالكوافور" يتغزل بي. ويقول لو قبلت الزواج منه لما كان إرتبط بأحد. أنا أرفض لأنه أصغر مني ب ٥ سنوات. .. واحد آخر تكلم مع أهلي ورفضته أنا. ...

(د. ٣٥ سنة)

كلير (39 سنة)

" ... كل ما أتعرف على شاب بتركوا ، أخاف ، أهرب من الزواج ... أعتقد أن مشكلتي تعود الى الحادثة التي تعرضت لها ... كان عمري ١٤ سنة عندما تعرضت لإغتصاب .. بقيت فترة

أعاني ، حزينة ، لا أتعاظى ابداً مع الشباب. لم أقدر التخلص من هذا الشعور ، بحس اني محطمة. أتزوج؟! لا أحس بيوم من الأيام بأنني سأتزوج ويصير عندي أولاد ... بحكي مع شاب بس يصير شي جدي أهرب لا أعرف لماذا؟ بحس حالي وسخة ، بكره حالي ، بحس إني سأبقى وسخة حتى الممات. ان الأشياء يللي صارت معي أنا وصغيرة من وقتها حسيت حالي وسخة ، مش نظيفة ، وصار يكبر هيدا الإحساس معي ... مثل ما هني الشباب وسخين يؤذون البنات انا بدي أوذيهم ، كل

الشباب وسخين ... أرفض الزواج لأنني أخاف من ردة فعلي بالجنس معه اذا بدو يلمسني ستكون ردة فعلي عدوانية ، لا أريد الإنجاب. "

دخلت وعلامات التوتر والإحباط ظاهرة على شكلها جلست ، جامدة لم تتمكن من القول: " كيف بدّي بلش؟ "

تتهدت ، وتنفست عدة مرات ثم أغضت عينيها لست أدري ما الذي اصابها وقالت :

" مشكلتي الإغتصاب ، بحس نفسيتي تعبانة متضايقه كثير ... بدي غير شي في لا أعرف ما هو وكيف؟" بهذه التعابير كانت كلير تعبّر عن غضبها ورفضها القاطع للزواج وخاصة انها تكره والدها الذي كان يضرب أمها. حاولت كلير بشكل لا واعٍ أن ترفض أنوثتها وقد تمثّل أولاً برفض الطعام حتى أصبحت تعاني من Anorexia .

إن مظهرها يوحي بأنها ريشة تنتقل في الفضاء. ترفض كل علامات الأنوثة كي تلغي إمكانية الإغراء من جديد كأنثى خوفاً من الإغتصاب. ترفض جسدها " الجسد واجهة للهيكل العظمي ، أنا لا أفكر بأن جسدي حلو هو مش حلو ، لا أفكر أبداً بتلمّسه ، انني أكره كلياً أعضائي التناسلية. "

" يقولون عني أخت الرجال ، طبعاً أصبحت قوية بعد الحادثة ، كل علاقاتي مع الشباب فيها توتر ... "

لقد تماهت كلير بالمعتدي لكي تلعب دوره في أذية الشباب كما تقول وحتى لا يتمكن أحد منهم من إغتصابها من جديد. عندما أخبرتني أحلامها تبين بأن هوام : (فانتازم) الإغتصاب موجود بشكل رمزي كل عناصره تبدو من خلال: " الهروب بين الشجر " وهو موقف إيجابي لأنها لم تتمكن خلال الحادثة من التحرك من مكانها. ثم تتكلم عن " الدم " وعن " قدح في زندها " كل هذا يرمز الى

العذاب الذي تعيشه من جراء فقدانها العذرية و "القدح" هو المهبل. ... وتابعت العلاج حتى وصلت الى المصالحة مع ذاتها ...

فتاة تتمايل بشعرها وجسدها ، مثيرة بثيابها الضيقة ، يبدو أنها تهتم بشكلها وإنها مرتاحة. ما هو سبب قدومها الى العيادة؟ : (شروق ٣١ سنة) " أعاني في حياتي لأنني أعيش مع أخواتي ٢ ، هم يضربونني وقاسيين معي. أمي ماتت وأبي تزوج من جديد. "

هنا تغير لونها وصمتت تابعت وهي تدمع: " عندما كنت مراهقة ١٤ سنة ، ذهبت مع رفيقتي على سهرة فلم أجد الا شاب ، تركتنا وحدنا فحاول إغتصابي ، حملت صحن السجائر وضربته على رأسه وهربت وأنا أبكي على الطريق في منطقة رأس بيروت التقيت برجل مع زوجته أخذوني الى البيت لعند أهلي : (بكاء) كل الشباب يعجبون بي وبجسدي فقط. خطبت مرة شاب خلال أسبوعين فقط لأنني كنت خاف من أي علاقة معه. اذا حاول أن يمسك يدي أتوتر وأرفض. بعدها تعرفت على شاب وبقيت معه خلال ٣ سنوات لكنني خرجت معه ٦ مرات ، أكرهه وأتمنى لو أتمكن من قتله لأنه مثل غيره يفتش على شهوته وليس على شخصيتي : (تبكي) كنت أحبه لكن أفضل الحكي

على التلفون لأنه كان يطلب مني دائماً الممارسة وأنا كنت دائماً أرفض. فجأة عندما كان يقبلني خفت وصرخت وضربته كف. لأنو منذ عمر ١٣ سنة وأنا أتعرض لتحرشات. حاول ابن الجيران ، خفت كثير وأخبرت أمي أخذوه على المغفر .

صاحب أخي تقرب مني وحاول يعمل معي علاقة جنسية ... ما عدت أثق بالشباب ، يلي بيزعجني بالزواج هو عندما أفكر بأنني سأنام مع شاب وسيلمسني ، اخاف بأن يكون عاطل ، شيرير وان لم أتمكن من تلبية حاجاته أشعر بالغضب" : (بدأت ترتجف) . كنت أحب ماما كثير ماتت منذ ٥ سنوات وكان أبي ، اكرهه ، يضربها لما كان بدو ينام

معها ... كان يسكر ، ويضربني أنا كمان. كيف أثق بالرجال ، أخي حاول التحرش بي ، لحق بي الى الحمام ، اخي الثاني نام جنبي وحاول أن يمد يده عليّ ، صرخت وأتت ماما عليه. تزوج وصار عنده أولاد ما زلت أخاف منه. : (بكت من جديد) أي شخص يحاول أن يقترب مني بحس دغري بإشمئزاز وأتذكر كل اللي صار معي ، اخاف وأبدأ بالصراخ وأمنع الشاب من أن يقترب مني ، ممكن أضربه من شدة خوفي ..

ذهبت مع ماما ، كي أشعر بأمان ، الى طبيب نسائي لأنني كنت قلقة على عذرتي :  
" بنتك ما اشبها شي .." إرتحت. "

إنها أسباب تشوّه صورة الرجل بالطبع ، لكن هنا تبدو شروق وكأنها مذنبة ، لكل ما حصل معها ، إنها تحاول بشكل لاواعٍ أن تعاقب نفسها بالهروب من اللذة ، الجنس والزواج .

إتصلت : (نارا ٣٣ سنة) بالتلفون ، وكان صوتها خافت ، فلم افهم عليها " هل يمكنني أن أزورك ، لأنني أعاني من مشكلة." دخلت عليّ امرأة في الثلاثين ، ممشوقة القامة ، تضحك بحزن ، جميلة لكنها منطفئة وكأنها لا تدري بأنها تؤثر بالناس وبالقلوب ، وتلفت الأنظار . مدّت يدها لتسلّم عليّ أحسست ببرودة يديها وتعرقها وفهمت معنى مجيئها لزيارتي. وبدأنا رحلة لم تكن بالقصيرة. بعد صمت دام لدقائق ، تنهدت وقالت :

" أعمل بنشاط وفجأة أتوتر وأصرّخ ... بصراحة خايفي احكي ... عشت مع زوجي ، عند بيت عمي ، ولم نمارس الجنس كثيراً هو لا يحب هذه الشغلة ، لأنه كان مأخوذ بالسياسة وبحزب معين وأنا كنت صغيرة ولم أفهم بهذه الأمور ، كان حنوناً معي ، كان عمري ١٦ سنة. كان يعرف كيف يضع يده على جسمي. : (سكت ودمعت) كنت حبو كان رجال ، لا أنساه أبداً. (أجهشت نارا بالبكاء ولم تتمكن من الكلام ). بعد اسبوع دخلت وقالت :

" أعتذر تفتحت جروحي ، يومها كان الطقس حاراً فتحت شبابيك بيتنا الجديد الأرضي ، سمعت حركة في الليل ، إعتقدت بأنها هزة .. فتحت الباب كان في حدّاً برا ... بدأت بالصراخ ، حتى قام زوجي ، قوّصوا الزلمي \_ غميت ولم أعد أعرف ماذا جرى .

: (صراخ ، بكاء )

كانت نارا تبكي ، وتنتوتر وتسكت كلما قريت من بوح السر الذي تخفيه ، تشعر وكأنها مسؤولة عن موت زوجها لأنها لم تتمكن من فعل أي شيء ، تحمّل نفسها الذنب. أكملت إغتصابي ... لو تعرفني شو يعني أن يسرق أحد جسمي ... يا ريت قتلني كان أحسن .

أكره حالي ، من يومها أكره جسمي ، أنظر الى المرأة صدفة أبصق على حالي ، بكرهو لجسدي ، يا ريت فيني ما شوفو وأتعامل معه ، حتى عندما أدخل الى الحمام أحاول أن اخرج بسرعة وأتجنب قدر الإمكان أن ارى جسدي .

بعد الحادثة ب ٥ سنوات تعرفت على شاب ، يعجبني لكنني لم أتقبل أن يتقرب مني ويلمسني ، كرهته ونفرت منه. اشعر أنني أكره الرجال وأقرف منهم. اشعر بحاجة لرجل لكنني أخاف من ردة فعلي ، لا أتصوّر حالي بوضعية جنسية معه \_ أقرف. "

يارا فتاة تهرب وتخاف من الجنس الآخر لماذا؟ عمرها ٢٧ سنة :

" أخاف من كل شيء ، أعيش في خوف. هل أخاف من الشباب أم من الإرتباط

لا أعلم. انا خاطبة وأخاف أن يكذب عليّ ، لا أتق بالشباب ، كل الناس كذابون ...

عقدتي مع الشباب إنتقلت على كل شيء ، لا اقدر أن آخذ أي قرار. مشكلتي مع خطيبي إنه يكذب عليّ أو يخونني. أنا قلقه حتى لو كنت معه ، لا اشعر بإطمئنان ، كأنه يخبىء عليّ شيئاً ما لا أعرف كيف إرتبطت به. ": (كانت مندهشة ، سكوت )

" ... أتضايق عندما يقترب مني ليبوسني وحتى قبله كنت أحب شاب وارتبطت به قبل سامر ، وعندما يقترب مني ليقبلني أنزعج. طبعاً اشعر بالذنب عندما أقبل القبله ، اشعر بنفسني " مش منيحة ". لا يوجد شباب منفتحين ويقبلون بحياتي السابقة ... لقد قبلت من قبله ٤ شباب ولم أتجرأ أن أخبره عن الذي (- ر-) حاول التحرش بي وخفت وذهبت مع أختي عند طبيب كي أتأكد بأنني ما زلت عذراء. كان قد إغتصبني بعمر ١٦ سنة.

دخلت بعد عودتي من المدرسة على الدكان ، سكر الباب وحاول تقبيلي صرت صرّخ ، خزق لي قميصي ودفشني على الأرض وصار يضربني ، حاولت المقاومة ما عاد عندي قوة ، نط فوقي شلحني الجينز ... وقف بالنهاية فوقي ونزلهم عليّ ....

قمت داخلة ولم أشعر بشيء لبست وعدت الى البيت .

وخفيت الموضوع ، وصرت أدرس كأن شيئاً لم يكن. لكن ما كنت نام. ابكي كل ليلة. ... صرت منطوية على نفسي. ... ثم عندما أحببت ابن خالتي وصلنا للزواج وبطلت كنت أحب تعذيب الشباب. ... "

## داخل الزواج

كيف تعيش بعض المتزوجات حياتهن مع الرجال وماذا يشعرن؟ لنترك البعض منهن يتكلمن عن هذه التجربة التي تبدو لي مريرة ، أحياناً فيها إذلال من كثرة الإحتقار لهن .

كانت فدى امرأة في الثلاثين من عمرها عندما رأيتها ، كئيبة ، نحيلة ، بيضاء وكأنها تخاف من كل الناس ، بدأت حديثها قائلة: " أنظري الى جسدي وستفهمين معنى زيارتي لك. (وجدت آثار العذاب على جسدها ، فطلبت منها أن تخبرني عن السبب) تابعت :

" كانت ليلة عرسي إغتصاب" وغصت بالبكاء ولم تكمل. مسحت دموعها ورفعت رأسها" كانت ليلتي الأولى أبشع ليلة في حياتي ، شعرت وكأن حيواناً بجانبى وأول كلمة قالها لي: لو حصلت عليك قبل الزواج لما تزوجتك. خضعت لأبشع أنواع الضرب منذ اليوم الأول من زواجي. كنت أحلم بتأسيس بيت وأسرة ، ضاع كل شيء ....

فكانت حياتي الجنسية بشعة ، كان يؤذيني ويؤلمني ... والمؤسف أن امه كانت تتابع خطواتي وهو كان يتأثر بها. إتصلت به مرة وقالت له ، من تحب أكثر أنا أو هي؟ عندها سمعت الكف الذي صفعني به ، وهكذا تأكدت إنه يحبها. ...

تزوجت دون إرادة أهلي لذا لم أبوح بإسراري لهم وعذابي وإذلالى : (بكت وبكت ... ) كنت أكره حالي وجسمي وتمنيت الموت عندما كان يمارس معي الجنس وصرت أقرف من حالي لأنني أتحمّل هذه الإهانات خوفاً من أهلي. كان يصفعني بدايةً بيده ثم تطور الأمر حتى صار يضربني ضرباً وحشياً ... : (وانفجرت بالبكاء) مرة ضربني أمام أخي بسبب حادث حصل ثم رماني على الأرض وأشبعني ضرباً حتى نزل دمى ...

لقد تكونت صورة بشعة في مخيلتي عن الرجال ، وأعيش الآن بعد طلاقى مع أولادى. من تحت الدلف لتحت المزراب ، هذا ما حدث لي ، هربت من أب يسكر دائماً وهو الذي كرهني بالرجال لأنه كان يضرب أمى ، فتركنا وهربت منه .

قالت سعاد : (٣٣ سنة) وهي تتلوى أمامى وكأنها مزعوجة ، متوترة ، قلقة لا تعرف من اين تبدأ. " أنا مطلقة الآن وقد حرمت من إبنتى ، اخذها منى. اكره كل الرجال ، لا أحب الجنس أبداً. أبى كرهني بكل الرجال ثم جاء زوجي وازداد الأمر سوءاً. كنت أشعر بألم في رأسي كلما إقترب منى وبرغبة كبيرة الى النوم ، فكنت ابكى دائماً مما أزعج طبعاً زوجي. صار يضربني لأننى كنت عنيدة أريد أن أعبر عن إرادتى و رغباتى. حاول بجميع الطرق أن يخضعني فلم اقبل حتى

وصلنا الى الطلاق. لا افكر أبداً بالزواج ثانيةً لأن كل الرجال هدفهم الإساءة الى المرأة وخاصة انا لا أدري لماذا: زوجي ، ابي وحتى أخي الذي لا يكثرث لأمرى. "

تطمح منى الى الخيانة لأن زوجها كان يضربها. دخلت فتاة في العشرين من عمرها جميلة ، تبدو واثقة من نفسها لكنها حزينة رغم محاولتها إخفاء كل هذا بحيويتها وإبتسامتها .

" بتعرفي أني تزوجت بالقوة لأنو ماما بدها اياه وكنت خاف منها. هناك طبعاً مشاكل ظهرت خلال الخطبة ، لأنه كان قاسياً ويريدني داخل البيت ، ممنوع الخروج مع رفيقاتي. ... ليلة عرسى حسيت حالي في ماتم وليس في عرس. بعد فترة صار يضربني كلما طلبت منه فستان أو زيارة رفيقتي ... أخذت أيدو على الضرب ...

لكن أول ليلة كانت حلوة ، لأنه كان رومئسي ، عاملني بلطف وكنت مبسوطه كثير معه. ... تغير وصار نهار يللي بدو ينام معي يبقى ٥ دقائق فقط ويتركني دون أن اصل الى اللذة. ما بعرف شو صار ، شو غيرو. ... صرت شك فيه لأنه كان يبقى الى آخر الليل في عمله. كان المهم هو ينبسط وخلص. عندما أحاول ن احكي معه يرفض ويقول لي شو بفهمك أنا طبيب ، اسكتي. "

دخلت تستجد وهي إمراة نحيلة ، وعلى مظهرها تبدو علامات التعب والقلق ، زهوى:(٣١ سنة). " لست أدري من أين أبدأ بالكلام معك ، انني أعاني من مشاكل مع زوجي لأنه يريد أن أنجب له صبياً ، ماذا أفعل؟ يريد أن يطلقني" سكتت ، ووضع يديها على رأسها ، " هنا الألم ، بعد زواجي منه بدأت أشعر بصداغ ... لا معنى لحياتي لولا وجود أولادي ، كنت تركت البيت من زمان ... بس لوين بدي روح :(صارت تبكي وتتنهد ). هو ابن خالتي ، لما تزوجني كنت في ال ١٧ سنة ما بعرف شي عن هذا الرجال وجنس الذكور ، كنت بريئة ... وأمي لم تتكلم معي وتوعيني عن الجنس والرجال. ... عشت أول فترة معه بنعيم ... كان زوجي يحب الجنس كثير وهنا بدأت المشاكل. كنت كل النهار كون تعبانة وفي الليل بدو يأخذ كل شيء ... شعرت بأن همه الوحيد هو الجنس وكان يحب عضوه ودائماً يهتم به أمامي ... أنا كنت أكره هذه الحركات وأحب النظافة وأقرف منه ... وبعد ممارسة الجنس معه أذهب الحمام واستفرغ في كل مرة. ... حبلت للمرة الثانية وعلم بأنني سأنجب طفلة ... جنّ جنونه وهيئك بلشت المشاكل وصار يضربني كلما أتى الى البيت ويهددني بالطلاق ويمارس الجنس معي بوحشية ويطلب مني القيام ببعض الأمور أستحي ... بدو كون مثل العاهرة، في حال رفضت يضربني من جديد

ويقول بدي صبي حتى لو تزوجت من جديد. زريني بالبيت ما يسمح لي الخروج حتى عند الجيران ... كما ترين أنظري الى وجهي المليء بالثور. ... صار يأتي سكران الى البيت ، مرة ضريني وجرني الى التخت : (هنا لم تعد تتمكن من الكلام ، وغصت بالبكاء من جديد) وقام بممارسة الجنس بوحشية ، كان يضريني ويكمل معي هذا الوحش المفترس ....“

إن زهوى تعاني من مشكلة مع زوجها لكن ماذا يوجد في اللامقال؟ صحيح بأنها ترفض الجنس معه لكنها تربت بالقمع والرفض وإنكار الجسد الأنثوي. لا يوجد أي تربية جنسية ، لا توعية ولا جو تفاهم ونقاش داخل الأسرة. فكانت مرتبكة تسكت عندما تريد التعبير عن المكبوت. هكذا تقوم بعد ممارسة الجنس " بالتقيؤ والإستفراغ "

وهذا يعني قرف ورفض اللذة وشعور بالذنب. لماذا علاقتها عدوانية أي أنه يضربها؟ كانت تعاني زهوى من عصاب يتمثل بوسواس النظافة عندها ويسمى بالوسواس القهري يتكرر حدوثه بإستمرار. ممكن إعتباره وسيلة دفاعية لكي تهرب من ذاتها من جسدها .

يشعرها زوجها بالدونية لأنها أنثى ولا تنجب الا البنات. إنها تعاني من الإحباط والدونية كما يقول أدلر تشعر بالمهانة من جرأ دورها الجنسي. انها ترفض أنوثتها وتظهر من خلال مشاكل ان لم نقل أمراض نفسية- جسدية : (سيكوسوماتيك) .

ليًا : (٤٠ سنة) متزوجة ولها ٣ أولاد. " أتعرفين بأن زوجي لم يعرف بأني أتيت الى هنا. يرفض دائماً أن اتكلم عن حياتنا الخاصة مع أي إنسان ... تعلمين بأني لم اعد احتمل هذا الوضع ، ، ، اشعر بحاجة للإبتعاد عنه ولو فترة ان لم يكن فسخ الزواج. كنت أتأمل بالتغيير لكنه يزيد معاملتي سوءاً. أشعر بضغط كبير على صدري هنا : (وتضع يدها على صدرها) لم أعرف كيف يجب أن أتصرف معه. " : (سقطت دموعها ، فتلبكت أمامي وكأنه عيب ). " أنا لا أبكي أمام أحد بحياتي ، تعودت أن أحبس دمعي وكل شيء ، ، لأنني تربيت على القساوة منذ صغري. كان ابي قاسياً جداً لا يرحمنا ، حتى أمي أصبحت مثله قاسية. تعذبنا وتهجرنا خلال الحرب .. هناك أشياء في داخلي تزعجني ، هل بإمكانني قول كل شيء هنا؟ : (تنظر إلي بعينين واسعتين تشبه موج البحر وتحقق بي وكأنها تنتظر مني ردة فعل ، أو أنها تطلب المساعدة ). " عندي مشكلة في التواصل معه ، يوجد مشاكل عديدة ، لا أعرف من أين أبدأ وكيف؟ تزوجت منذ ١٥ سنة ، كنت أحبه وهو أيضاً إنما تغيرنا. يضريني بشكل دائم ، بقيت معه من أجل أولادي. ... أنا بحاجة له

مادياً ومعنوياً... تركت عملي بعد الزواج ، هو الذي طلب وفرض عليّ هذا. لو كنت مستقلة كان الطلاق عليّ اسهل. ... لأول مرة أستعمل كلمة طلاق. لم أتجرأ أن أخبر ماما عن وضعي المأساوي. عندما تزوجت كان وضعي منيح وعلاقتي الجنسية معه مقبولة لأنني لم أفهم كوعي من بوعي لا أحد يشرح لي. يقول لي هل وصلت الى النشوة أقول نعم دون ان أعرف أو افهم ماذا يقصد. هكذا دامت حياتنا حتى أصبح يضربني بشكل عنيف على أقل موقف أو رفض. ... كيف سأشعر باللذة معه. صرت حس بعدم الرغبة معه ، حتى أنني أهرب منه لما يأتي المساء لأنه لا يداعبني ولا يغازلني ويقول: هيدي واجباتك أن تلبي لي رغباتي الجنسية لشو تزوجتك! انت باردة ولا اشعر بجسدك اذا أنت لا تحبيني. ما طالع منك شي. : (بكاء ، سكوت) تعبت ماذا أفعل؟ يضربني أمام أولادي كلما يزعل مني ، يحدد عليّ انا اراضييه ، لم أعد أتمكن لأنني أشعر أنني تتأزلت بما فيه الكفاية. ... اريد أن يُحاورني ، أن يتكلم معي وليس التقرب مني فقط لممارسة الجنس معي دون أي تحضير ، عليّ أن أكون مغرية ، بشوشة دائماً مهيأة لإثارته. وأنا من يهتم بإثارتي؟! إنه مجنون يفقد عقله عندما يغضب ، أخاف منه. ضربني مرة حتى كسر لي يدي وذهبت الى المستشفى. ... اذا التقيت به وأمام الناس يعطي صورة على أنه متزن وهادىء لا ينفعل بسرعة. إنه متناقض في شخصيته. ...

" لقد تأذيت نفسياً منه ، رغم كل هذا اقبل بهيديك الشغلة ، مع أنني أنفر منه ولا أحس بشيء لأن جسدي تأذى منه ، فكيف سأشعر باللذة؟!

" أنت باردة لأنه لم ينزل منك سائل" يردد دائماً هذه الجملة: كيف ستصلين الى النشوة اذا؟ لم افهم ولم أعرف لماذا؟: (سكوت) ."

كيف يمكنني أن أفسّر هذه المشكلة التي تعاني منها ليا؟ تبدو أحياناً خاضعة لأمر الزواج والزوج مستسلمة ومن جهة أخرى هناك ثورة ورغبة في تغيير وضعها. رغم الإحباط تنهض وتفتش عن البديل ، ترفض الروتين. لكنها لا ترفض العنف هذا الأمر جعلني أتساءل عن السبب. تبين لي بأنها هي التي تتحكم بالوضعية وتسيطر على العلاقة ، وهو يشعر بالضعف أمامها. وهذا الأمر يعود غالباً الى الشعور بعدم قدرته إيصالها الى اللذة ، لأنه كان يعاني من قذف سريع وهذا ما إعترفت به في النهاية لأنها لم تكن تعرف سبب هذا العنف. هناك مشكلة تطول جسدها الذي

ترفضه لأنها تخافه ولم تفهمه ، تزوجت صغيرة ولم تُحضّر للزواج وللجنس. انها تجهل ذاتها  
أنوثتها فكيف ستتواصل مع الرجل إذا !!!

أين أنت؟ غصت معك وغطست في قولك حتى إنني كدت أن أغرق في التجاذب عندك. بين  
الداخل والخارج. اتركيني ، ابتعد كي ألقى الضوء على ما قيل وما لا يقال في خطابك. لمست  
نوعاً من المجابهة المتواصلة ، خلال المقابلات واللقاءات ، بين السلطة والجنس. تبدو الغالبية  
متجاذبة بين نوعين من الحياة ، الظاهرية والتي يجب أن تخفي الحياة الكامنة المرتبطة بالداخل  
وهي الممنوعة. تدور المواضيع غالباً حول

" الأسرة" المثالية ، والقامعة والمانعة في نفس الوقت التي تقيّد وتحبط وتكبت الرغبات " الجنسية  
". إذا هناك مآزم نفسيّ تعاني منه المرأة. بين " الأنا الأعلى " و"الهو" حسب التحليل النفسي تحاول  
إخفاء هذا التناقض بين الداخل والخارج عندها .

يقول لانغ: " نحن في الداخل. ثم نظهر الى الخارج ما كنّا في الداخل" هكذا صورة الجسد لواعية  
وترتكز على العاطفيّ لذا تبدو غير واضحة عندهن. هذا ما لمستته من خلال أجسادهن وتعابيرهن  
وصورهن ومواقفهن الراضية للعلاقة الجنسية بشكل عام وبشكل لاواعٍ . عبر البعض منهن عن قبولهن  
للجنس لكن داخل الزواج الذي لم يرتحن فيه مع الرجل. اما الأخريات فتكلّمن عن الجنس على أنه  
مقرف \_ مرعب لأنها منذ طفولتها تربت بجو يكبت كل ما هو جنسي وفي المراهقة يبعدها عن  
جسدها .

الكل يشعر بذنب كبير بشكل لاواعٍ أوصلهن الى " القلق " .  
تلتقي المآزم في الجسد هذا ما تلمسته على أنه المحرّك والمعبر. راقبت وفهمت بأن الجسد كان  
محور كل الأقوال ، وكان يظهر بأشكال عديدة حسب كل حالة .

سمعتك ، ورأيتك وتمكّنت من الوصول الى فهم خطابك وقولك الأنثوي الدفين الذي ظهر في  
بعض الأحيان ، اي عندما عبرت عن جسدي ، لذّتك ، رغبتك ، عذابك ، عن  
حياتك الجنسية .

هل إنتهى التفتيش والبحث عن " الأنوثة" عن حياتك / حياتي وحياتكن؟ انني وجدتك بالفعل بين  
إثنتين / إمرأتين: المرأة التي تريد أن تصل الى أنوثتها الحقيقية وليست المعروفة والمفروضة عليها.  
والتي يجب أن تتخلّص من المرأة القديمة. أعتقد بأن مفهوم الفروقات الجنسية بين الجنسين هو غير  
معبر وغير كافٍ ، لأنه جامد وبسيط .

إنك تتأرجحين بين ذاتك والقسم الآخر منك غير المعروف بعد. إن هذا الضياع بين إمرأتين يعود الى صورة الأم الموجودة فيك منذ طفولتك والمرأة الأخرى التي تحلمين بها لإستبدالها ، المرأة الجديدة ، المختلفة التي لها قول مغاير عن المؤلف والمعروف والسائد الذي هو خالٍ من اللون وباهت .

### المراجع

- (1 Irigaray. L. ، Parler n` est jamais neutre ، Paris ، Minuit ، 1985 ، couv
- (2. مي جبران، " إنكار الجسد الأنثوي"، مجلة العلاج النفسي اليوم، عدد1، 2002، بيروت.
- (3 مي جبران، " الشخصية الأنثوية النفس مازمية و/ أو المرأة بين الداخل والخارج"، مجلة مواقف، عددان 73-74، 1993-1994، بيروت.
- (4 إنكار الجسد الأنثوي، المرجع نفسه.
- (5p.142 ، 1991 ، Points ، Paris ، Sibony.d; Entre- deux
- (6. اعتمدت الأسماء المستعارة، كما لجأت الى تعديلات في ما يتعلق بمواصفات شخصية كل امرأة من حيث العمر والمهنة وغيرهما.
- (8 (7 p.17. ، 1977 ، Stock ، Paris ، Laing.R. Noeud
- لقد قمت بمقابلات مباشرة مع عدد من النساء بهدف دراسة" الأنوثة" لديهن، وما يرد بالطبع ليس سوى مقتطفات من هذه الأبحاث.
- ،1972 ، stock ، paris ،Laing. R; La Politique de la famille

(9p.25

، 1971 ، stock ، Paris ،Kate Millet; La politique du male  
10P.49 .

، Gr. Fam; 1972 ، Eduquer ou informer ، F. et autres ، Guash  
11 pp.40-41 .

، 1968 ، Gallimard ، Paris ،P.L`image du corps ، Schilder  
12p.145 (13 Idem P.31 (14 اقترحت مصطلح"

الأنا ملذّية" كابتكار جديد مكان المصطلح الشائع والمعروف "الإستمناء"  
السبب في ذلك الإبتكار أنّ معنى الإستمناء هو من المنى أي الحيوان المنوي  
المحصور بالذكر وحده، وكأنه يحق له التمتع وحده جنسياً والمرأة مستبعدة.

15 مي جبران، " الموضة: سيكولوجية الإنبهار بين الداخل والخارج"، مجلة الفكر العربي،  
35، حزيران،  
1985، ص. 38.

(\* هناك ونُظار مصطلحان لا أستعملهما بمعناهما المرضي النفسي، وأعتبرها حلاً غير  
مباشر عند المرأة اللبنانية لمآزمها، وهذا ما درسته في بحث سابق حول الهتك والنظار:

#### Exhibitionnisme et Voyeurisme

P. 313-314 ، Op.Cit ، L`image du corps (16

، 1967 ، Seuil ، Paris ، Barthe. R. Système de la mode (17



## جسد المرأة بين الأمس واليوم قراءة أنثروبولوجية

سوسن كريمي

هذه الورقة مستمدة أفكارها من بحث للدكتوراه في مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية (تخصص منطقة الشرق الأوسط) والمقدم في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية (SOAS) بجامعة لندن وذلك في عام ٢٠٠٣. و تيمة البحث هي دراسة للهويات في البحرين المعاصرة وكيف أن هذه الهويات تشكلت بتفاعل العناصر المحلية و الإقليمية والعالمية. وتلعب المرأة دوراً لا يمكن الاستغناء عنه أو تجاوزه في تشكيل واختلاق و توصيل وإخفاء و استرجاع الهويات، بل إن المرأة تحملت عبء التمثيل المادي والرمزي لمتغيرات و ثوابت الثقافة التقليدية والعصرية كما يطرحها البحث. وفي ظل هذا فإن هذه الورقة هي عبارة عن محاولة لإلقاء الضوء على بعض التغيرات والتحويلات التي حدثت في فترات زمنية محددة من تاريخ البحرين الحديث بدءاً من عشرينيات القرن العشرين والتعرف على هذه التغيرات باتخاذ المرأة وجسدها كوسيط medium لاكتساب المعرفة.

لكن قبل البدء في الموضوع نحن بحاجة لطرح سؤالين لتتضح الصورة الكلية:

السؤال الأول: لماذا تم اختيار جسد المرأة كوسيلة بحث وليس جسد الرجل؟

والسؤال الثاني: لماذا البحث من خلال الجسد وليس بالطرق التقليدية؟

بالنسبة للسؤال الأول: من الممكن قراءة هذه التغيرات من خلال جسد الذكر والأنثى على حد سواء حتى بغض النظر عن مراحلهم العمرية، مع الأخذ بعين الاعتبار أن دلالات جسد الشباب أكثر انعكاساً للصراعات والميول الفكرية والاجتماعية التي تحدث في المجتمع ، لأن الشباب أسرع في تبني وتبديل تلك التيارات والميول. إذ يشير كل من Tapper-Lindisfarne & Ingham إلى أن معاني القوة والرفاهية يتم استعراضها من خلال مظهر الرجل والأنثى، لكن في بعض الأحيان يستعرض الرجل جسده كرمز لقوته ، وفي أحيانٍ أُخرى يفوض الرجل نساءه (زوجته، خليلته، بناته... الخ) مسؤولية العرض أو التمثيل. وهو ما أسماه (1898) Veblen ، "الاستعراض بالإنابة أو بالتفويض" vicarious ostentation، وهو ما يعني إلقاء عبء المعاني وتمثيلاتها بشكل عام على كاهل المرأة. بحيث يتم اختزال التعبير عن الانتماءات المختلفة (حتى الجغرافية منها) وتمثيلات الوضع الاقتصادي، العقائدي، الأعراف، كرامة الرجل وشرفه كل ذلك يتم اختزله في جسد المرأة، وحتى كرامة الوطن يُعبّر عنها مجازياً من خلال جسد المرأة، فإذا أحتل الوطن أو أغتصب فهو كإغتصاب لجسد المرأة. فلا يُربط وضع الوطن مجازياً بالرجل بقدر ما يربط بالمرأة. فَيُعبّر عن هذا التفويض بعبء التمثيل الثقافي والرمزي الذي تحمله المرأة على عاتقها.

وفيما يتعلق بالسؤال الثاني: لماذا البحث من خلال الجسد وليس بالطرق التقليدية؟

فإن المقصود بالطرق التقليدية هو فهم البناء الاجتماعي والثقافي من خلال الاحتكاك المباشر بمصادر جمع البيانات ، فلماذا اللجوء إلى الجسد دون هذه الطرق؟

تجدر الإشارة إلى أن المظهر استخدمه البعض كمرادف للجسد، مع أن هناك اختلافات، وكثير من هذه الاختلافات مشكّلة ثقافياً. وأعتبر اللبس جزءاً من المظهر. المظهر يحمله الجسد، والمظهر له خاصية مطاطية أي بالإمكان توسيعه ليشمل جوانب كثيرة من حياة الإنسان. وهناك دراسات أكدت على ذلك، منها على سبيل المثال دراسة (1992) Sharon Naqy لقطر والتي عرضت فيها كيف أن بعض العائلات القطرية تستعرض سلطتها و شبكة علاقاتها القوية في المجتمع عن طريق بناء بيوتها في مساحات جغرافية مخصصة لها. فالبيوت هنا جزء من المظهر الاستعراضية. وبما أن الملابس هي أكثر العناصر الثقافية قرباً من الجسد لذا فهي واحدة من أهم الوسائل التي تستنطق الجسد، حيث يحمل الفرد معه ملبسه أينما ذهب. بعكس المنزل الثابت الذي لا يمكن أن يُنقل. وهذا يعني أن الملبس ثري في عملية التواصل البصري visual، و عن طريق

لغة الملبس يمكن فهم الأبنية structures والمعاني والأفكار والهويات. ومن هذا المنطلق يمكن فهم البنية الاجتماعية للمجتمع البحريني عبر تحليل ما يحمله الجسد من تشكيلات، وجزء أساسي من هذا المظهر هو اللباس على الجسد. جسد المرأة؛ إذ هو مرآة يُقرأ من خلالها حال الأمة؛ ولذا يكثر التطرق في هذه الورقة للملبس والمظهر كتعبيرات للجسد.

و في ظل هذا الطرح تجدر الإشارة إلى أن الدراسات السوسولوجية والأنثروبولوجية حول الجسد دراسات حديثة نسبياً. فأقرب الدراسات الكلاسيكية للجسد في الأنثروبولوجيا كانت تركز على الملابس كجزء من التراث الشعبي ينفصل عن الجسد. أما الدراسات الحديثة في الثقافة المادية sub-discipline of material culture ، فقد طرحت اهتماماً كبيراً بالجسد والمظهر عامةً واللباس (dress) خاصة كلفة توصل وحتى كلغة صراع غير لفظي بين أفراد المجتمع. وإلى جانب هذه الدراسات الثقافية كانت هناك دراسات حديثة ذات طابع فلسفي واجتماعي تاريخي. فهناك بعض الكتابات التي حاولت تحليل معاني الجسد أو لفت الأنظار لأهميته ومدلولاته، بالأخص في الثقافات الغربية. وعلى سبيل المثال كتابات ميشيل فوكو التي لفتت الأنظار إلى أهمية دراسة الجسد "كمقولة اجتماعية" وموضوع لعلاقات القوة والسيطرة. وكذلك بريان ترنر (1992) Bryan Turner الذي طرح فكرة الجسد كمشروع يتغير معناه من مرحلة تاريخية لأخرى. ففي عصر هيمنة الكنيسة (خلال العصور الوسطى) كان الجسد مشروعاً لعبور من عالم الماديات إلى عالم الروحانيات، ولن يتسنى للمرء الوصول إلى هذا العالم الروحاني إلا بمحاربة الجسد بوصفه شيئاً دونياً نجساً مرتبطاً بالشهوات والغرائز. أما في عصر الرأسمالية المتقدمة في دول أوروبا الغربية فالجسد "هو المبتدأ والمنتهى" حيث يصبح الجسد مشروعاً للمتعة والانغماس في الذات واللذات والتجميل المفرط، و"التكامل الجسدي" (بالمفهوم المادي البحث وحسب معايير الحديثة) ودليلاً على رفعة الروح ومعبراً إليها. ومن ثم فالعبور يبدأ من الجسد ثم إلى الروح عودة إلى الجسد لكن بصورة جديدة. وإذا كان عصر الكنيسة قد همش الجسد فإن عصر الرأسمالية المتقدمة- حسب تعبير ترنر- بثقافته الاستهلاكية قد تركز حول الجسد الذي تحول إلى هدف في حد ذاته وبطريقة تصل أحياناً إلى الابتذال.

تكمن أهمية هذا البحث في ثلاث قضايا أساسية. أولاً، تجاوز الوسائل التقليدية في البحث والذي كانت تهتم بالأبنية الاجتماعية بطريقة مبسطة على حساب الوسائط الأخرى المهملة كالجسد، ولغة الحياة اليومية، والمأكل ، وهي الوسائط التي يمكن أن تكون مجالاً خصباً لقراءة الواقع الاجتماعي والثقافي. ثانياً، تجاوز النمطية السائدة عن المجتمع البحريني كجزء من مجتمعات الشرق الأوسط التي كانت توصف بالجمود والسلبية. فقد كشفت قراءة التحولات الاجتماعية من خلال جسد المرأة عن أن المجتمع البحريني يتسم بالفعالية والتفاعل مع العالم الخارجي. ثالثاً، وهو ما نود التركيز عليه هنا، تجاوز التصورات النمطية السائدة للمرأة والتي كانت تتصورها كائناتاً سلبيات غير فاعل، إذ كشفت دراسة الجسد عن مدى فاعلية المرأة البحرينية وحضورها في مختلف الميادين. رابعاً، تتضح أهمية دراسة الجسد كآلية للمعرفة عندما ندرك أنه عندما لا تتكلم الهويات فهي تُقرأ من خلال المظهر. فالتواصل البصري أو المرئي يحدث قبل التواصل اللفظي. عن طريق النظر نتحدث ونقرأ معاني الانتماءات الاجتماعية والثقافية للهويات. كما قال

Eicher & Roach-Higgins (1992: 23): "from womb to tome the body is dressed body".

أي من الرحم إلى اللحد الجسد هو جسد ملبوس. وبالرغم من ذلك فقد تناولت دراسات قليلة موضوع الجسد وما يرتبط به من اللبس والمظهر. و تزداد أهمية هذه الدراسات في الحالات التي يكون فيها استنتاج المعاني أو الأفكار أو الانتماءات سواء كانت أيديولوجية، سياسية، أو دينية محظورة أو يمثل مصدراً للخطر على سلامة الفرد/الجماعة أو حتى على فرص تقبل المحيط للفرد والسماح له بالاندماج. فالملبس ذو طابع مزدوج في علاقته بالهوية، حيث يمكن أن يمثل صمام أمان، يُعبر من خلاله المهمش عن انتماءاته؛ ومع ذلك إذا تعرض المهمش للاتهام أو الاضطهاد في انتمائه، فبإمكانه الادعاء، كإستراتيجية للحماية، بأنه أسبب قراءته.

وهذا يقودنا إلى القول بأنه كما أن لكل لغة رموزها التي يُتفق على مدلولاتها بين الجماعة التي تتكلم بها، كذلك فللجسد لغة، فهي تُقرأ عندما ينتمي القارئ للجماعة التي تتكلم بها أو يكون على علم بلغة الجماعة.

أي كما أن لكل جماعة لغة يتواصلون بها عن طريق الاتفاق على رموزها ومدلولاتها، فللجسد والمظهر أيضا لغة يستطيع قراءتها من يعرف رموزها ومدلولات تلك الرموز.

أود هنا الإشارة لبعض الجوانب المنهجية، هذه الورقة بما في ذلك النتائج التي سأشير إليها هي نتاج جهد بحثي يسعى إلى استخدام جسد المرأة كوسيط medium للتعرف على بعض السياقات الاجتماعية المختلفة التي عاشها المجتمع البحريني في القرن العشرين. و المراحل التي سأطرق لها، دون إسهاب ، تمتد ما بين أواخر العقد الثاني إلى العقد التاسع من القرن العشرين، مع الأخذ بعين الاعتبار أن فترة التسعينيات لم تأخذ حقها الوافي من الملاحظة و التحليل بالأخص في علاقتها بموجات الثقافة الاستهلاكية التي اجتاحت مجتمع البحرين.

سعى البحث إلى قراءة التحولات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية للمجتمع البحريني. ويمكن تقسيم هذا الهدف إلى عدة أقسام فرعية. اجتماعياً، يهدف البحث إلى تسليط الضوء على مدى ثراء تنوع البنية الاجتماعية في البحرين. ثقافياً، إلى أي مدى استطاع المجتمع البحريني من خلال الثقافة خلق نسيج مشترك من أساليب الحياة والمعاني وخصوصاً في الاستجابة نحو التغيرات الاجتماعية. اقتصادياً، مدى ارتباط تبني الزي الوطني (الهوية القومية) والتخلي عنه بتحولات الوضع الاقتصادي في البحرين. سياسياً، الأيديولوجيات التي أثرت في الشارع البحريني كالقومية و الناصرية والبعثية والماركسية والليبرالية الغربية، ومدى تحولها من خلال المظهر إلى أدوات للتعبير السياسي على مختلف الأصعدة.

أما الأدوات المستخدمة في جمع البيانات والتحليل في هذا البحث فقد اعتمدت على وسائل متنوعة من دراسة الوثائق والصور، إلى دراسة التاريخ المدون بالشكل التقليدي، إلى جانب البحث الاثنوغرافي في البحرين بين ١٩٩٤-١٩٩٨. وتم الاعتماد على مزيج من البيانات الوثائقية، والتاريخية. استخدمت من خلالها أدوات عديدة من المقابلة إلى الاستبيان إلى الملاحظة بالمشاركة، فضلاً عن تحليل الصور والوثائق، و زيارات ميدانية لمختلف الجهات الرسمية وغير الرسمية الخ.

هناك عدة قضايا أثارها البحث أود أن اطرحها. أول هذه القضايا يتمثل في غياب التصوير الفوتوغرافي كتقنية من تقنيات الرصد والتسجيل للواقع الاجتماعي. على الرغم من ندرة الوسائل التكنولوجية وآلات التصوير في تلك الفترة مقارنة بالتقنيات الجارية الموجودة حالياً، إلا أن الصورة الفوتوغرافية تعد أحد الوسائل الأساسية التي سمحت بتحليل السياق الاجتماعي للفترات الزمنية المرتبطة ببدايات القرن العشرين من تاريخ البحرين الحديث، كما يظهر ذلك جلياً من خلال كتاب الصور (٢٠٠٥) لجمعية نهضة فتاة البحرين وكيف أنها وثائق تاريخية تحكي تفاعل المجتمع مع التغيرات المحلية والإقليمية والعالمية، فجمدت هذه الصور بعضاً من معاني تلك الفترات في ذاكرة التاريخ، وحفظت بعض ملامحها. إذ أن الصورة تعكس التغيرات التي مر بها المجتمع البحريني وانعكاس هذه التغيرات على الجسد، أي الجسد كمرآة لقراءة التاريخ.

من استطاع أن يجمد تلك اللحظات (أقصد بذلك من امتلاك آلة التصوير ومن قام بالتصوير) يحكي قصة انتماءاته هو أيضاً. أي في تلك الفترات طبقات و نخب معينة في المجتمع البحريني استطاعت أن تمتلك آلات التصوير، وهي نخب سياسية، واقتصادية، و اجتماعية، وفي فترات لاحقة ثقافية. كما تثبت الوثائق التاريخية أن أوائل أولئك الذين قاموا بالتصوير في البحرين هم غير بحريين. و ذلك أن معظم الصور في تلك الفترة أُخذت من قبل الإدارة الاستعمارية البريطانية ولأهداف مختلفة. تلك الصور تحمل رموز السيادة والاستعباد و تعكس حالة المصور والمصور، الإنجليزي بكامل أناقته بالبدلة الغربية وربطة العنق (في مناخ البحرين الخانق والرطب!) والبحريني في ملابس رثة مقارنة بالانجليزي (وإن كان بعض البحرينيين في زي أكابر القوم من منظور البحرينيين أنفسهم). وهذا يعيدنا إلى الصور النمطية الاستشراقية عن الشرقي المتجمد في الأزمنة السحيقة. (انظر صورة للمصمم الفرنسي كارتيه مع بعض أفراد النخبة البحرينية الحاكمة في كتاب جمعية نهضة البحرين ٢٠٠٥). فأحد الصور النمطية المرتبطة بالفكر الاستشراقي تتمثل في الأزياء والملابس، بمعنى أن ملابس الشرقيين تحمل دلالات البداوة، والقبلية، والتقليدية، والأصولية الإسلامية. وأقوى معاني

الأصولية الدينية هو حجاب المرأة المسلمة. إن ملابس الشرقيين بشكل عام، واللباس الديني بشكل خاص أُتخذت كأحد الأدلة على جمود الشرق وتخلفه وعدم قدرته على مجاراة ديناميكية المجتمعات الغربية الصناعية. إذ تم تصوير الشرقي في أدبيات الاستشراق كبدوي، محارب، فلاح، رجل قبلي، بربري، سطحي، واعتباطي؛ كل ذلك بحس مسرحي theatrical overtone واصفا إياه كصنف أو نوع أدنى من البشر(1: 1997 Lindisfarne & Ingham).

أما القضية الثانية فتتعلق بغياب المرأة وحضورها وارتباط ذلك بالتعليم. صور النساء خلال العقود الأربعة من القرن العشرين قليلة جدا. بعض الصور الفريدة المتوفرة للنساء، كما أتيح لي أن أرى بعضها، هي لنساء بحرينيات من أصول غير عربية وبعضهن غير مسلمات. هؤلاء النسوة كن أوائل النساء البحرينيات اللاتي دخلن المدارس واعتقد أن لعلاقتهن الوثيقة بالنساء في الإدارة الاستعمارية دوراً في ذلك، إلى جانب تأثير بعضهن بالنهضة التعليمية في بعض الدول المجاورة، كإيران والعراق، بحكم الانتماء العرقي لبعضهن. فكانت نساء الإدارة الاستعمارية تُمَثَلُ المرجعية الذوقية في الملابس بالنسبة لهؤلاء النساء البحرينيات (انظر الشكل (1)).



(شكل 1)

في فترة الثلاثينيات، مع بدء استخراج النفط، بدأ العامل البحريني الكادح ولأول مرة يلبس لباساً غربياً، والذي اشتهر بين البحرينيين "بالبيلسوت"، فأصبح المستعمر الغربي ليس فقط يستعمر وطنه بل أيضاً يتملك جسده. بينما ظلت المرأة البحرينية من الطبقات الكادحة والحاكمة مغيبة في الصور. هذا لا يعني غياب دورها في المجتمع بقدر ما يعني تغييب الرجل (الشرقي والغربي) لكيونتها وحتى رفضه توثيق وجودها.

ولكن أهم ما يميز هذه الفترة هو بدء التعليم النظامي (الحكومي) للإناث في البحرين والذي بدأ في نهاية العشرينيات و بداية الثلاثينيات (1928)<sup>1</sup>، حيث تم افتتاح أول مدرسة للبنات بعد افتتاح مدرسة للبنين بعقد من الزمن، والذي أعقب المدرسة الإرسالية الأمريكية بفترة غير قصيرة، بعقدين من الزمن تقريباً. ومن المثير أن أوائل الطالبات اللاتي التحقن بالمدارس يحكين قصة انتماءات عائلاتهن. فهؤلاء الطالبات كن ينتمين لطبقة اجتماعية متميزة ومن سكان المدينة، بينما كان القرويون من أشد المعارضين لتعليم الفتاة في المدارس.

<sup>1</sup> - قامت جمعية نهضة فتاة البحرين مشكورة بتوفير الصور الفوتوغرافية من أرشيفها الخاص.

وهذا لا يعني أن سكان المدينة احتضنوا تعليم الإناث، بل إن بعضهم، كما قيل لي في البحث الميداني، كان يرى أن تعليم النساء مسألة منافية للأخلاق والدين على أساس أن الفتيات إذا تعلمن الكتابة سيكتبن رسائل غرامية للأولاد. الفتيات في تلك الفترة التحقن بالمدارس في عباةتهن السوداء (التي تُعرف محليا بالدفة) وخمار الوجه (العشوة).

القضية الثالثة تتعلق بالحركات القومية وتأثيرها على تحرر المرأة. بدأ حضور النساء في الازدياد منذ الخمسينيات وذلك لعدة أسباب أولها ازدياد عدد المتخرجات من المدارس وازدياد عدد المقيدات في المدارس، إلى جانب قيام الحركات القومية والأيدولوجية الأخرى، كالشيوعية، والتي كان لها الجاذبية من قبل النخب الثقافية والاجتماعية والعرقية في البحرين. وقد عكست قراءة هذه التغيرات على جسد النساء في هذه الفترات بعض التحولات الفكرية والسياسية والاجتماعية التي مر بها المجتمع البحريني تحت تأثير الأحداث في الوطن العربي والعالم بشكل أوسع. فالقومية العربية، بتعبيرها الناصري الاشتراكي (أنظر شكل ٣)، كانت أحد أقوى التيارات الفكرية التي اجتاحت الساحة البحرينية. و في تلك الفترة وصل عدد قليل من البحرينيات إلى القاهرة وبيروت للدراسة، كان لباسهن نسخة من ملابس المرأة المصرية المتعلمة "المتحررة". فلبسن التنورات القصيرة التي باتت تزداد قصرا مع تقدم العقود إلى أن توقف القصر في طول التنورة وتراجع مع بداية الثمانينيات. وفي الفترة من الخمسينيات إلى السبعينيات تحولت العباة إلى رمز للرجعية، وقد رآها البعض كأحد أسباب تخلف الشرق لما يحمل من دلالات على الفصل والعزل والتجيب. ومن هذا المنظور أصبح تحرير الأمة جسديا وفكريا يكتسب بتحرير جسد المرأة من علائق الماضي.



(شكل ٢)



(شكل ٣)



(شكل ٤)

مع انحسار شعبية الحركات القومية بعد نكسة ١٩٦٧ تحول الكثير من القوميين إلى الشيوعية، التي هي أكثر ليبرالية من القومية فتسمح بمساحات من التحرر للنساء بدرجات أكثر. لذلك يشكّل مظهر النساء البحريني في الستينيات وفترة السبعينيات قياساً على الحاضر ثورة على الأعراف و المفاهيم المحلية للحشمة والحجاب. كان الرجال الشيوعيون يُعرفون أيضاً من شواربهم الغليظة ذات النهايات المنحنية للأسفل.

القضية الرابعة تتعلق بتناقضات التغريب. كان للحركات الليبرالية الغربية والثقافة الغربية بشكل عام صدى كبير في البحرين أيضاً، ففي فترة السبعينيات بدأ عدد من الطلبة البحرينيين التوجه للغرب للدراسة، ويمكن قراءة تلك الفترة في تبني البحرينيين المتخرجين من الجامعات الغربية للبدلة والكرافطة في أماكن العمل، للدلالة على تعليمهم الغربي، بينما انتشرت بين المراهقين والشباب موضة المغنيين الغربيين مثل فرقة بيتلز، بشعورهم الطويلة والقمصان الضيقة والبنطلونات الضيقة حول الخصر والواسعة حول الأقدام المعروفة بـ (Charleston). ظاهرة أخرى ميزت فترة السبعينيات وذكرتها منيرة فخرو في كتابها ١٩٩٠ *Women at Work in the Gulf*. وهي نتيجة لازدياد عوائد النفط في الخليج وارتفاع عدد العمالة الوافدة، عاد الخليجيون ومعهم البحرينيون، إلى لبس الثوب والغتر لتمييزهم عن العمالة الوافدة وكتعبير عن اعتزازهم بانتمائهم الخليجي، فأصبح الثوب رمزاً للأفضلية والتعالى الخليجي. هذا الحس تزايد مع اندلاع الحرب العراقية الإيرانية وما تبعه من نشأة مجلس التعاون الخليجي في ١٩٨١.

القضية الخامسة تتعلق بالصحة الإسلامية وأثرها على الحجاب. في نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات بدأت الملابس تتغير بشكل جذري معبرة عن حال التغير في مجتمعات الشرق الأوسط، بدت تلك الفترة تعرف بالصحة الإسلامية والتي كانت أحد أسبابها الثورة الإسلامية في إيران وما سبقها من تأثير جماعة الإخوان المسلمين المصرية. تميزت تلك الفترة والتي مازلنا نعيش آثارها بعودة قوية للباس الحجاب بين النساء، أو يمكن القول أن مصطلح الحجاب اكتسب شهرة في تلك الفترة. أما بين الرجال فتمثل المظهر الإسلامي في إطلاق اللحي واللبس الديني بتعبيراته الطائفية والسياسية المختلفة. فأصبح بالإمكان معرفة الانتماءات الطائفية والولاءات السياسية وحتى التبعية لشخصيات دينية معينة من خلال ألوان الحجاب، طريقة ربط الحجاب؛ و بين الرجال من ألوان القمصان الداكنة والواسعة التي تترك نهاياته فوق البنطلون ليغطي المنطقة الوسطى من جسد الرجل، وتميزت تلك القمصان بالأيدي الطويلة... الخ من التفاصيل الدقيقة التي من خلالها كان أولئك الذين عُرفوا بالمتدينين والمحيطين بهم يستنتقون هوياتهم ويتصارعون من خلالها في الساحات السياسية والاجتماعية وحتى الاقتصادية.

القضية السادسة تتعلق بالثقافة الاستهلاكية وتحول القيم. أما في منتصف التسعينيات بدا البحريني وكأنه مل الحروب الانتمائية والصراعات الفكرية عبر الأيديولوجيات. ونتيجة للعولمة أو الهيمنة كما يحلو للبعض أن يسميها، والتي وفرت عن طريق مبادئ الرأسمالية قدرة الشراء بالدفع المؤجل إلى جانب إنشاء مجتمعات التسويق الضخمة التي لم تشهد مثلها البحرين في تاريخها والتي نافست الأسواق الشعبية، تأثر البحريني، ذكراً وأنثى، بهذه الثقافة الاستهلاكية التي تتسم بطبيعتها الجبرية ولكن سمحت له في نفس الوقت باختلاق هوية مشكلة على المظهر المادي بدل الانتماءات الدينية والعرقية والجغرافية. وأصبح عدد كبير من الفئات الشابة تتشارك في رؤاها للواقع الاستهلاكي ومتطلباته. فخلقت هذه المجتمعات ساحات اجتماعية يتلاقى فيها البحرينيون باختلاف انتماءاتهم ويتبادلون معاني التشكيلات الاجتماعية.

يمكن القول إن أكثر الملابس التي ميزت هذه الفترة هي ابتكار ما اشتهر بـ "العباية" أو كما تسميه البنات بـ "عباية كتف". هذا الزي بدأ في السعودية وتبنته البحرينيات منذ منتصف التسعينيات وأصبح الآن يلبس لأغراض متنوعة إلى جانب الحشمة الدينية، كالحرية التي تمنح المرأة في عدم التقيد بأخر الموضات (مع إن للعبايات موضة قصيرة العمر لكنها تظل أقل تكلفة من تغيير الملابس بشكل يومي)، والحماية من تحرشات الشباب، إلى جانب إن عدداً كبيراً من البنات، خاصة القرويات، استطعن الموازنة بين شروط الأهل في الدخول إلى الجامعة بالالتزام باللبس الديني وبين رغباتهن في أن يُظهرن بمظهر يتوافق مع جيلهن ومزاجه.

هذا الموضوع غني ولا يمكن أن نستوفيه حقه في عجلة، لكننا مقيدون بالمساحة المتاحة للورقة. ففي الخلاصة بعد هذا العرض الموجز نرى كيف إن للجسد لغة غنية نتواصل ونتصارع من خلالها، وهنا يبين لنا -كما سبق أن أشرت - مدى أهمية الحصول على المعرفة بوسائل غير تقليدية. تطرقت الورقة إلى أهمية دور المرأة في حمل عبء النقل والتجديد والإبداع في الثقافة بعواملها المتعددة والمتضاربة أحياناً كثيرة. فطرقت البحث إلى السرد المجازي للتاريخ البحريني الحديث عبر جسد المرأة.

## References:

- 1- Karimi, Sawsan 2003 *Dress and Identity: Culture and Modernity in Bahrain*. PhD thesis. School of Oriental and African studies, University of London.
- 2- Lindisfarne-Tapper, Nancy and Ingham, Bruce 1997 *The Language of Dress in the Middle East*. Surry: Curzon.
- 3- Nagy, Sharon 1998 'Social Diversity and Changes in House Forms and Appearance in Qatar', *Visual Anthropology* 10 (3-4): 281-304.
- 4- Turner, B. 1996 *The Body and Society: Explorations in Social Theory*. London: Sage.
- 5- Eicher, Joanne B. and Roach-Higgins 1992 'Definition and Classification of Dress: Implications for Analysis of Gender Roles' in Ruth Barnes and Joanne B. Eicher (eds), *Dress and Gender: Making and Meaning*, pp.8-28. Oxford: Berg.
- 6- Foucault, Michel 1984 *The History of Sexuality*. Foucault, Michel

٧- جمعية نهضة فتاة البحرين ٢٠٠٥ خمسون عام من العطاء الصور امرأة.  
وزارة الإعلام: مملكة البحرين.